تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة الإسراء وسورة الكهف

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

12 ربيع الأول 1448 الموافق 25 أغسطس 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . ..**الصفحة**

سور الإسراء 4

سورة الكهف..... 50

المراجع 104

سورة الأسراء

تسمية السورة

(سورة الإسراء): وهو الاسم الأشهر والأكثر تداولاً في المصاحف، لافتتاحها بذكر معجزة الإسراء.

كما يطلق عليها (سورة بني إسرائيل): ورد في عهد الصحابة، لحديثها عن قصص بني إسرائيل وإفسادهم.

وثمة اسم ثالث، حيث يطلق عليها كذلك: (سورة سبحان): لافتتاحها بكلمة التسبيح في أول آية، وهي السورة الوحيدة التي افتتحت بهذا اللفظ، بخلاف السور التي الأخرى من المسبحات حيث افتتحت ب (سبح) أو (يسبح).

وهي سورة مكية بالاتفاق، نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية، وربما نزلت بعض آياتها متأخرة في أول الهجرة للمدية مثل قوله تعالى (ويسألونك عن الروح).

بلغ عدد آيات سورة الإسراء في العد الكوفي (وهو المعتمد في مصاحف اليوم) 111 آية، أمّا عند باقي علماء العَدّ (المكي والمدني والشامي والبصري) 110 آيات.

دار الخلاف في آية واحدة فقط وهي قول الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، فمنهم من عدها آية منفصلة، ومنهم من عدها مع ما بعدها.

سبب نزول السورة ووقته وسورة النجم

عن عبد الله بن مسعود، – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: «فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} قَالَ: نَاسٌ مِنَ الْجِنِّ يُعْبَدُونَ، فَأَسْلَمُوا»

وفي رواية أخرى للحديث: {إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ} قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ، وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ، زَادَ الْأَشْجَعِيُّ: عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الْأَعْمَشِ: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ}» [1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: بينا أنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حرْثٍ وهو مُتَّكئٌ على عَسِيبٍ إذ مر اليهودُ فقال بعضُهم لبعضٍ: سلوه عن الروحِ، فقال: ما رابَكُم إليه؟ لا يَستقبلنَكُم بشيءٍ تَكرَهونَه. قالوا: سلوه، فسألوه عن الروحِ، فأمسك النبيُّ صلى الله عليه وسلم فلم يَرُدَّ عليهم شيئًا، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمتُ مقامي فلما نزل الوحيُ قال: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ [2].

وفي موقع الإسلام سؤال وجواب: سورة "الإسراء" سورةٌ "مكية" باتفاق، وهي من أواخر السور النازلة بمكة، فنزولها بعد حادثة الإسراء والمعراج، وقد ذكرت في أول السورة في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

قال ابن عاشور – رحمه الله –: " وليس افتتاحها بذكر الإسراء مقتضيا أنها نزلت عقب وقوع الإسراء، بل يجوز أنها نزلت بعد الإسراء بمدة.

وذكر فيها الإسراء إلى المسجد الأقصى، تنويها بالمسجد الأقصى وتذكيرا بحرمته، نزلت هذه السورة بعد سورة القصص وقبل سورة يونس، وعدت السورة الخمسين في تعداد نزول سورة القرآن" انتهى.

ثانيًا: سورة النجم

---

1 - أخرجه البخاري (4714، 4715) بلفظه، ومسلم (3030)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11225)، باختلاف يسير.

2 - أخرجه البخاري (4721)، ومسلم (2794) باختلاف يسير

سورة "النجم" سورةٌ "مكية" باتفاق، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: " أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأ النجمَ فسجَد فيها ومَنْ معه إلا شيخٌ كبيرٌ أخَذ كفًّا مِنْ حصًى أو ترابٍ قال: فقال: به هكذا وَضَعَه على جبهتِه قال: فلقَدْ رأيتُه قُتل كافرًا" [1].

قال "ابن عاشور: "وهي مكية، قال ابن عطية: بإجماع المتأولين " انتهى. وعلى كلٍ فلا إشكال، لأنها لو نزلت قبل سورة "الإسراء" فلا مانع من ذكر "المعراج" فيها، وذكر الإسراء في سورة "الإسراء" من باب الإشارة لما حصل بالفعل، وليس هناك دليل على أنها نزلت عقب الحادثة، مباشرة.

بل يحتمل أن سورة النجم نزلت قبلها، فيما بين حصول قصة الإسراء والمعراج، ونزول سورة الإسراء بعد ذلك، فلا وجه للإشكال في هذا الأمر. والله أعلم [2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3) وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (5) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا(7) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8) إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

1 - أخرجه البخاري (1067)، ومسلم (576) باختلاف يسير

2 - انظر موقع الإسلام سؤال وجواب على الشبكة السؤال 319493، وانظر التحرير(15/ 6) و (87/27)، وحديث سورة سجوده صلى الله عليه وسلم بسورة النجم أخرجه البخاري (1067)

كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (11) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(17) مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (19) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا(22))

هذه الآيات الكريمات هي الديباجة والدرس الأول من سورة الإسراء تنسج معجزة بيانية تتداخل فيها حركة التاريخ البشري مع العقيدة، والكون، والمسؤولية الفردية.

*﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

إشراقة بلاغية: افتُتحت السورة بـ "سُبْحَانَ" (المفعول المطلق النائب عن فعله)، حيث سبح المولى نفسه ونزهها التنزيه المطلق، وبرّأها من كل نقص على طريق المبالغة والتعظيم قَبل إيراد الخبر المُعجز، وتحمل (سبحان) بمعنى التعجب من هذا الإسراء العجيب. والتنكير في "لَيْلًا" يفيد تقليل المدة (أي في بعض الليل)، والعبودية في "بِعَبْدِهِ" هي أرقى مراتب التشريف للنبي ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلسَ جبريلُ إلى النبيِّ فَنظرَ إلى السَّماءِ، فإذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فقال لهُ جبريلُ: هذا المَلَكُ ما نزلَ مُنْذُ خُلِقَ قبلَ هذه السَّاعَةِ، فلمَّا نزلَ قال: يا محمدُ! أَرْسَلَنِي إليكَ رَبُّكَ؛ أَمَلَكًا جعلكَ، أَمْ عبدًا رَسُولًا؟ قال لهُ جبريلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يا محمدُ! فقال رسولُ اللهِ: لا بَلْ عبدًا رَسُولًا [1].

وقد جاءت قصة الإسراء والمعراج في الصحيحين: عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: فُرِجَ عن سَقفِ بَيتي وأنا بمَكَّةَ، فنَزَلَ جِبريلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ففَرَجَ صَدري، ثُمَّ غَسَلَه بماءِ زَمزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَستٍ مِن ذَهَبٍ مُمتَلِئٍ حِكمةً وإيمانًا، فأفرَغَه في صَدري، ثُمَّ أطبَقَه، ثُمَّ أخَذَ بيَدي، فعَرَجَ بي إلى السَّماءِ الدُّنيا، فلَمَّا جِئتُ إلى السَّماءِ الدُّنيا قال جِبريلُ لخازِنِ السَّماءِ: افتَحْ، قال: مَن هذا؟ قال: هذا جِبريلُ، قال: هل معكَ أحَدٌ؟ قال: نَعَم مَعي مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أُرسِلَ إليه؟ قال: نَعَم، فلَمَّا فتَحَ عَلَونا السَّماءَ الدُّنيا، فإذا رَجُلٌ قاعِدٌ على يَمينِه أسوِدةٌ، وعلى يَسارِه أسوِدةٌ، إذا نَظَرَ قِبَلَ يَمينِه ضَحِكَ، وإذا نَظَرَ قِبَلَ يَسارِه بَكى، فقال: مَرحَبًا بالنَّبيِّ الصَّالِحِ والِابنِ الصَّالِحِ، قُلتُ لجِبريلَ: مَن هذا؟ قال: هذا آدَمُ، وهذه الأسوِدةُ عن يَمينِه وشِمالِه نَسَمُ بَنيه، فأهلُ اليَمينِ منهم أهلُ الجَنَّةِ، والأسوِدةُ التي عن شِمالِه أهلُ النَّارِ، فإذا نَظَرَ عن يَمينِه ضَحِكَ، وإذا نَظَرَ قِبَلَ شِمالِه بَكى، حتَّى عَرَجَ بي إلى السَّماءِ الثَّانيةِ، فقال لخازِنِها: افتَحْ، فقال له خازِنُها مِثلَ ما قال الأوَّلُ، ففَتَحَ –قال أنَسٌ: فذَكَرَ أنَّه وجَدَ في السَّمَواتِ آدَمَ، وإدريسَ، وموسى، وعيسى، وإبراهيمَ صَلَواتُ اللهِ عليهم، ولَم يُثبِتْ كيفَ مَنازِلُهم، غيرَ أنَّه ذَكَرَ أنَّه وجَدَ آدَمَ في السَّماءِ الدُّنيا، وإبراهيمَ في السَّماءِ السَّادِسةِ، قال أنَسٌ: فلَمَّا مَرَّ جِبريلُ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإدريسَ قال: مَرحَبًا بالنَّبيِّ الصَّالِحِ والأخِ الصَّالِحِ، فقُلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إدريسُ، ثُمَّ مَرَرتُ بموسى فقال: مَرحَبًا بالنَّبيِّ الصَّالِحِ والأخِ الصَّالِحِ، قُلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا موسى، ثُمَّ مَرَرتُ بعيسى فقال: مَرحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبيِّ الصَّالِحِ، قُلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا عيسى، ثُمَّ مَرَرتُ بإبراهيمَ،

---

1 – أخرجه أحمد (7160)، والبزار (9807)، وأبو يعلى(6105) ، وصحح الألباني إسناده في صحيح الترغيب والترهيب (3280).

فقال: مَرحَبًا بالنَّبيِّ الصَّالِحِ والِابنِ الصَّالِحِ، قُلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال ابنُ شِهابٍ: فأخبَرَني ابنُ حَزمٍ أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ وأبا حَبَّةَ الأنصاريَّ كانا يَقولانِ: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ثُمَّ عُرِجَ بي حتَّى ظَهَرتُ لمُستَوَى أسمَعُ فيه صَريفَ الأقلامِ، قال ابنُ حَزمٍ، وأنَسُ بنُ مالِكٍ: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ففَرَضَ اللهُ عزَّ وجلَّ على أُمَّتي خَمسينَ صَلاةً، فرَجَعتُ بذلك، حتَّى مَرَرتُ على موسى، فقال: ما فرَضَ اللهُ لكَ على أُمَّتِكَ؟ قُلتُ: فرَضَ خَمسينَ صَلاةً، قال: فارجِعْ إلى رَبِّكَ؛ فإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ذلك، فراجَعتُ، فوضَعَ شَطرَها، فرَجَعتُ إلى موسى، قُلتُ: وضَعَ شَطرَها، فقال: راجِعْ رَبَّكَ؛ فإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطيقُ، فراجَعتُ فوضَعَ شَطرَها، فرَجَعتُ إليه، فقال: ارجِعْ إلى رَبِّكَ؛ فإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ذلك، فراجَعتُه، فقال: هي خَمسٌ، وهي خَمسونَ، لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ، فرَجَعتُ إلى موسى، فقال: راجِعْ رَبَّكَ، فقُلتُ: استَحيَيتُ مِن رَبِّي، ثُمَّ انطَلَقَ بي، حتَّى انتَهى بي إلى سِدرةِ المُنتَهى، وغَشيَها ألوانٌ لا أدري ما هي؟ ثُمَّ أُدخِلتُ الجَنَّةَ، فإذا فيها حَبايِلُ اللُّؤلُؤِ، وإذا تُرابُها المِسكُ. [1].

وقيل أنّ رحلة الإسراء والمعراج كانت في العام الثامن للبعثة، عام الحزن، حيث فقد النبي صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب الذي كان يحوطه ويؤازره ويمنعه بعد الله تعالى، وزوجه خديجة رضي الله عنها التي كانت عضده، ومأوى طمأنينته وسكينته بعد الله تعالى، انغلق عليه بابان في الأرض ففتح الله له أبواب السماء، ورحل صاعداً للقاء ربه سبحانه.

وعن عائشة رضي الله عنها: لما أُسرِيَ بالنبيّ إلى المسجدِ الأقْصى، أصبح يتحدَّثُ الناسُ بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنوا به، و صدَّقوه، و سَعَوْا بذلك إلى أبي بكرٍ، فقالوا: هل لك إلى صاحبِك يزعم أنه أُسرِيَ به الليلةَ إلى بيتِ المقدسِ؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدَقَ، قالوا: أو تُصَدِّقُه أنه ذهب

1 - أخرجه البخاري (349)، ومسلم (163) باختلاف يسير

الليلةَ إلى بيتِ المقدسِ و جاء قبل أن يُصبِحَ؟ قال: نعم إني لَأُصَدِّقُه فيما هو أبعدُ من ذلك، أُصَدِّقُه بخبرِ السماءِ في غُدُوِّه أو رَوْحِه، فلذلك سُمِّي أبو بكرٍ الصِّديقَ[1].

السياق والأسلوب: الربط بين "المسجد الحرام" و"المسجد الأقصى" نقلة سياقية تؤسس لانتهاء الريادة الحضارية الدينية لأمة وبدايتها لأمة أخرى.

يرى ابن عاشور – رحمه الله – أن الربط يُشعِر بنقل أمانة التوحيد من بني إسرائيل إلى الأمة المحمدية. ويُبرز سيد قطب – رحمه الله – ظلال التكريم والمشاهد المعراجية التي تربط الأرض بالسماء وتُسقط حواجز الزمان والمكان.

*﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾، إشراقة بلاغية: العطف بالواو "وَآتَيْنَا" يربط حادثة الإسراء بالتاريخ الإلهي للرسالات. المنادى المباشر (أي: يا ذرية من حملنا مع نوح)، أو البدل في "ذُرِّيَّةَ" فيه إثارة للوجدان والتذكير بالنعم: أنتم سلالة النجاة الأولى مع نوح، فكيف تنحرفون؟

يذكر ابن تيمية أنّ التوحيد هو أصل أصول الرسالات: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾.

*﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: «قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا نِدَاءٌ يَعْنِي: يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا، {مَعَ نُوحٍ} فِي السَّفِينَةِ فَأَنْجَيْنَاهُمْ مِنَ الطُّوفَانِ»

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: «كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا أَوْ شَرِبَ شَرَابًا أَوْ لَبِسَ ثَوْبًا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَسُمِّيَ عَبْدًا شَكُورًا، أَيْ: كَثِيرَ الشُّكْرِ»

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللَّهَ ليَرضى مِن العبدِ أن يأكُلَ الأَكلَةَ فيحمَدَهُ عليها ويشرَبَ الشَّربَةَ فيحمَدَهُ علَيها[2].

---

1 - أخرجه الحاكم (4407)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (2/ 360) واللفظ لهما، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (69) مختصرًا، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (306) عن سنده: متواتر.

2 - أخرجه مسلم (2734)، والترمذي (1816)، وأحمد (12168) جميعهم بلفظه.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى تَورَّمَت قدَماه، فقيلَ له: غَفَرَ اللهُ لكَ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تَأخَّرَ، قال: أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا [1].

وينوه ابن القيم – رحمه الله – بصفة الشكر في نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾؛ فالشكر هو السبب الأعظم لثبات النعم ونجاة الذرية، يصدّق ذلك قوله الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7].

*﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

«أَيْ: أَعْلَمْنَاهُمْ وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب: أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ، وَالْقَضَاءُ عَلَى وُجُوهٍ؛ يَكُونُ أَمْرًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضى رَبُّكَ﴾ [الإسراء:23] ، وَيَكُونُ حُكْمًا كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 93] وَيَكُونُ خَلْقًا كَقَوْلِهِ: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ [فُصِّلَتْ: 12] ،

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقتادة: يعني وقضينا عليهم، فإلى [هاهنا] بِمَعْنَى عَلَى، وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ اللَّوْحُ المحفوظ. لَتُفْسِدُنَّ [اللَّامُ] لَامُ الْقَسَمِ مَجَازُهُ وَاللَّهِ لَتُفْسِدُنَّ، فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، بِالْمَعَاصِي، وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضُ الشَّامِ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ، وَلَتَعْلُنَّ، وَلَتَسْتَكْبِرُنَّ وَلَتَظْلِمُنَّ النَّاسَ، عُلُوًّا كَبِيراً [أي استكبارا وظلما كبيرا]» [2].

سنن السقوط والتمكين: إشراقة بلاغية: استخدام التوكيدات اللفظية والتركيبية: "لَتُفْسِدُنَّ" (لام القسم ونون التوكيد الثقيلة)، و*"عُلُوًّا كَبِيرًا"* (المفعول المطلق).

*﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا

1 - أخرجه البخاري (4836)، ومسلم(2819) .
2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص672)

وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

﴿فَجاسُوا﴾ أَيْ: فَطَافُوا وَدَارُوا، خِلالَ الدِّيارِ، وَسَطَهَا يَطْلُبُونَكُمْ وَيَقْتُلُونَكُمْ، وَالْجَوْسُ طَلَبُ الشَّيْءِ بِالِاسْتِقْصَاءِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: جَاسُوا قَتَلُوكُمْ بَيْنَ بُيُوتِكُمْ. وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا، قَضَاءً كَائِنًا لَا خُلْفَ فِيهِ»

وقيل ﴿وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا﴾: أي أنه قد انتهى الإفساد الأول وعاقبته قبل نزول القرآن.

التحليل السياقي والأسلوبي: صياغة القانون الحضاري الدوري: (إفساد 1 ← عقاب 1 ← استرداد عافية ← إفساد 2 ← عقاب 2 ← المآل المفتوح: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾).

يربط البقاعي – رحمه الله – في "نظم الدرر" بين نكث بني إسرائيل للعهود وبين إدراج قصتهم فور الإسراء؛ لتنبيه الأمة الجديدة من الوقوع في آفات السقوط الحضاري.

كما يوضح محمد قطب – رحمه الله – أنّ الأمة المسلمة لا تُغلب إلاّ إذا تخلت عن شرط عبوديتها، وأن تمكين الظالمين عليهم إنما هو سنة تمحيص وإعادة ضبط للمسار.

*﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الأجر الكبير أي الجنة.

هيمنة القرآن وطبيعة النفس البشرية: إشراقة بلاغية: ﴿أَقْوَمُ﴾ اسم تفضيل صيغ بصيغة المطلق، لم يذكر المفضول هنا لإشاعة فضل الفاضل، لا مقارنة بينه وبين مفضول ولذلك لم يذكره، ليدل على أن منهج القرآن هو الأكثر استقامة في كل مجالات الحياة، وأن التوحيد وكلمة التوحيد هو حبل الله الأوثق.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعد الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإسلام، وشديد الأهمية أن يوجه الوعي إليه، حتى يقبل الناس على الطاعات وينزجروا عن المعاصي رجاء ثواب الله، فهو من مقاصد الخطاب الإسلامي.

وهو أحد الركائز الأربعة التي تكذب بها قريش؛ الوحي والرسالات، والتوحيد واليوم الآخر،

*﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾، في الآية الجناس والتقابل بين *"بِالشَّرِّ"*و*"بِالْخَيْرِ"*، مع القصر والاستغراق في "وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا"، فالعجلة فطرة فطر الناس عليها.

الرؤية البيانية والتفسيرية: قال البغوي – رحمه الله -: «حُذِفَ الْوَاوُ لَفْظًا لِاسْتِقْبَالِ اللَّامِ السَّاكِنَةِ كَقَوْلِهِ: "سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ" (الْعَلَقِ-18)، وَحُذِفَ فِي الْخَطِّ أَيْضًا وَهِيَ غَيْرُ مَحْذُوفَةٍ فِي الْمَعْنَى. وَمَعْنَاهُ: وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ عَلَى مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَنَفْسِهِ، {بِالشَّرِّ} فَيَقُولُ عِنْدَ الْغَضَبِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ وَأَهْلِكْهُ وَنَحْوَهُمَا، {دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ} أَيْ: كَدُعَائِهِ رَبَّهُ [بِالْخَيْرِ] أَنْ يَهَبَ لَهُ النِّعْمَةَ وَالْعَافِيَةَ وَلَوِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَهَلَكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ بِفَضْلِهِ {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} بِالدُّعَاءِ عَلَى مَا يَكْرَهُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ فِيهِ. قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضَجِرًا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» [1]..

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تدْعوا على أنفسِكم، ولا تدْعوا على أولادِكم، ولا تدْعوا على خَدَمِكم، ولا تدْعوا على أموالِكم، لا تُوافقوا من اللهِ ساعةَ نيْلٍ فيها عطاءٌ فيُستجابَ [2].

وعن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها: دَخَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أبي سَلَمةَ وقد شَقَّ بَصَرُه، فأغمَضَه، ثُمَّ قال: إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَه البَصَرُ، فضَجَّ ناسٌ مِن أهلِه، فقال: لا تَدعوا على أنفُسِكُم إلَّا بخَيرٍ؛ فإنَّ المَلائِكةَ يُؤَمِّنونَ على ما تَقولونَ، ثُمَّ قال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لأبي سَلَمةَ، وارفَعْ دَرَجَتَه في المَهديِّينَ، واخلُفْه في عَقِبِه في الغابِرينَ، واغفِرْ لَنا ولَه يا رَبَّ العالَمينَ، وافسَحْ له في قَبرِه،

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص674).
2 - أخرجه أبو داود (1532) واللفظ له، وأخرجه مسلم (3009) مطولاً باختلاف يسير

ونَوِّرْ له فيه. [وفي روايةٍ]: نَحوَه، غيرَ أنَّه قال: واخلُفْه في تَرِكَتِه، وقال: اللَّهُمَّ أوسِعْ له في قَبرِه، ولَم يَقُلْ: افسَحْ له [1].

يرى سيد قطب – رحمه الله – أنّ القرآن يقدم القاعدة الصلبة الميزانية التي تجبر نقص العجلة البشرية وتضبط حركة السعي.

نظام الكون والزمن: *﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

إشراقة بلاغية: التقابل بين "اللَّيلِ" و*"النَّهَارِ"*، والتعبير بـ "فَمَحَوْنَا آية الليل" (فيه إشارة بيانية لطيفة إلى طمس ضوئه) وجعل آية النهار "مُبْصِرَةً" أي الشمس، (آيتين) أَيْ: عَلَامَتَيْنِ دَالَّتَيْنِ عَلَى وُجُود الله وَوَحْدَانِيّتِه وَقُدْرَتِه ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَعَلَ اللَّهُ نُورَ الشَّمْسِ سَبْعِينَ جُزْءًا وَنُورَ الْقَمَرِ كَذَلِكَ فَمَحَا مِنْ نُورِ الْقَمَرِ تِسْعَةً وَسِتِّينَ جُزْءًا فَجَعَلَهَا مَعَ نُورِ الشَّمْسِ [2].

ربط الآيات الكونية بالغاية النفعية والتكليفية (حساب السنين، والعمل) لتأكيد أن الكون مسخر وفق نظام محكم وليس عبثاً.

*﴿وكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: عمله وما قدّر عليه فهو ملازمه أينما كان.

المسؤولية الفردية والعدل الإلهي المطلق: إشراقة بلاغية: "﴿ألزمناه طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾" هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة تمثيلية أصلها من ملازمة القلادة للعنق؛ أي عمله ومصيره ملتصق به لا يفارقه.

---

1 - أخرجه مسلم (920)

2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص674).

الاستعارة التمثيلية هي تركيب لغوي يُستعمل في غير معناه الأصلي لعلاقة المشابهة، بحيث يكون اللفظ المركب قد نُقِل بتمامه من صورة واقعية مألوفة إلى صورة أخرى مشابهة لها في المعنى والمضمون، وغالبًا ما تجري مجرى الأمثال.

في قوله تعالى :﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، تعود الاستعارة التمثيلية إلى سببين رئيسيين:

تشبيه صورة معنوية بصورة حسية مشهودة: الأصل الواقعي (المُستعار منه): كان العرب قديمًا يتشاءمون أو يتفاءلون بطيران الطير (الزجر)؛ فإذا طار الطير يمينًا استبشروا، وإذا طار شمالًا تشاءموا، فسموا الحظ والعمل "طائرًا"، وكانوا يربطون التمائم أو القلائد في العنق ملازمةً لصاحبها.

المعنى المراد (المُستعار له) :عمل الإنسان (من خير أو شر) وما يترتب عليه من جزاء أو قدر ملازم له تمامًا لا ينفك عنه.
وجه الشبه: ملازمة العمل لصاحبِهِ ملازمةً تامة لا يمكن التخلص منها، تمامًا كالقلادة التي تُحيط بالعنق.
*﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، الفجائية والارتجال في الموقف، حيث يرتد الإنسان حسيباً على نفسه لقطع كل معذرة.

يقرر ابن تيمية – رحمه الله – أن هذه الآية وأمثالها هي أصل القاعدة الكبرى للعدل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فلا يتحمل أحد ذنب غيره، وقاعدة التكليف: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ لقطع الحجة.

كما ينوه ابن عاشور – رحمه الله – بالإيجاز والجزالة في بناء المبادئ القانونية للأخلاق والجزاء في الإسلام.

سنة هلاك القرى والمجتمعات: *﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾

إشراقة بلاغية: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا"فيها﴾ قرأ مجاهد: (أمّرنا) بتشديد الميم، أي: سلّطنا شرارها فعصوا، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب: (آمرنا) بمد الألف، أي: أكثرنا، وقرآ الباقون مقصورا مخففا، أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا.

هنا ما يسميه سيد قطب رحمه الله: تسليط الضوء على خطورة "الترف". عندما تستلم الطبقة المترفة مقاليد الأمور وتفسد دون رادع، تُساق المجتمعات إلى الدمار الذاتي كحتمية تاريخية وسنة إلهية.

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استَيقَظَ مِن نَومِه وهو يقولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قدِ اقتَرَبَ! فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يَأجوجَ ومَأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَدَ سُفيانُ بيَدِه عَشَرةً- قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ [1].

الانقسام البشري بين العاجلة والآجلة: إشراقة بلاغية: التقابل في السعي والمصير:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (19) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21) لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا(22) ﴾

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ ← ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ (مقيدة بالمشية).

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ ← ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (مطلقة ومصحوبة بالقبول والتقدير الإلهي).

يشرح ابن القيم – رحمه الله – كيف أن طالب الدنيا معذب بها، موكول إلى مشيئة الله وقد تتخلف فلا يعطاها، أو يعطى نصيبا لا يرضيه، أو نصيبا يعذب به، بينما طالب الآخرة يجمع الله عليه شمله ويشكر سعيه، ثم يختم الحق بالربط بين عطاء

1 - أخرجه البخاري (3346) باختلاف يسير، ومسلم (2880) وهذا لفظه.

الرزق الدنيوي الشامل للجميع وبين التفاضل الحقيقي في درجات الآخرة: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ، ومن كانتِ الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لَهُ [1]..

خاتمة المقطع والركيزة الأولى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾،

إشراقة بلاغية: النهي الشديد: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، والنتيجة المترتبة بصيغة الجواب: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة "القُعُود" لتمثيل العجز، والهوان، وانقطاع الأسباب.

فيها إشارة إلى رأس الحكم والوصايا التي ستفصلها الآيات التالية تبدأ بالتوحيد وتنتهي به؛ لأن الشرك يقطع العبد عن الناصر فيجعله "مخذولاً"، وينفي عنه الكمال فيجعله "مذموماً".

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

---

1 – أخرجه الترمذي (2465) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في ((الزهد)) (332)، والحارث في ((المسند))(1092) ، وصحح الألباني إسناده في صحيح الترمذي.

خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا(38) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (39) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (47) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48))

هذه الآيات الكريمة هي الدرس الثاني من سورة الإسراء، منظومة أخلاقية وتشريعية وفكرية متكاملة يُطلق عليها العلماء «دستور الحكمة القرآنية»؛ حيث تُبنى الحياة الإنسانية على قاعدة التوحيد الصلبة، وتتدرج منها الركائز الاجتماعية، والاقتصادية، والأسلوكية، لتختتم بالرد الداحض الشافي على شبهات الشرك والانحراف.

حقوق الوالدين وربطها بالتوحيد: *﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾

جاء الفعل «قَضَى» بصيغة الجزم والقطع الإلهي الذي لا يحتمل التردد. اقترن التوحيد ببر الوالدين لبيان أن حق الوالدين يقع في المرتبة التالية لمقام العبودية لله، إذ هما سبب الوجود الظاهري للإنسان بعد إيجاد الخالق.

إشراقة بلاغية: استخدام كلمة «أُفٍّ» ينزل بالنهي إلى أدنى مراتب الأذى اللفظي (اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر)؛ والمغزى البلاغي: "إذا حَرّم الأدنى (التأفيف)، فما فوقه من النهر والضرب والمخالفة أشد تحريماً بالضرورة". وتنكير «قَوْلًا كَرِيمًا» يقتضي التعظيم والتلطف التام.

*﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ...﴾، أي: ألِن جانبك لهما واخضع، قال عروة بن الزبير: لِن لهما حتى لا تمتنع من شيء أحباه. ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ من الشفقة.

الصورة البيانية: هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية بديعة، حيث شُبّه الإنسان بطائر يخفض جناحه، لكن الإضافة «جَنَاحَ الذُّلِّ» جاءت مقلوبة المألوف؛ ففي العادة يُخفض الجناح خضوعاً أو خوفاً، أما هنا فمصدره «مِنَ الرَّحْمَةِ»؛ أي ذلّ عطف ومحبة وطاعة لله، لا ذل عجز أو هوان.

الدعاء لهما ﴿رب ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي: أراد: إذا كانا مسلمين، وهذا الدعاء من الأبناء يعد من عمل الوالدين لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا ماتَ الإنسانُ انقَطَعَ عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثَلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالِحٍ يَدعو له [1]..

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّه مِن أطيَبِ ما أكَلَ الرَّجُلُ مِن كَسْبِه، وولَدُه مِن كَسْبِه. [2].

وقد جاء النهي عن الاستغفار للوالدين الكافرين: كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:113].

وعن ابن المسيب بن حزن، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: "أي عم ، قل : لا إله إلا الله . كلمة أحاج لك بها عند الله، عز وجل. " فقال أبو جهل وعبد الله

---

1 – أخرجه مسلم (1631) من أفراد مسلم على البخاري.

2 – أخرجه أبو داود (3528) واللفظ له، والترمذي (1358)، والنسائي (4451) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده.

بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. [قال النبي صلى الله عليه وسلم ": لأستغفرن لك ما لم أنه عنك". فنزلت: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) قال : ونزلت فيه : (إنك لا تهدي من أحببت)[القصص : 56] [1].

وفي الآية استحضار لضعف الإنسان في طفولته ليكون دافعاً لرحمة والديه عند ضعفهما في كبرهما.

*﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ...﴾، السياق: تطمين وتقويم لمشاعر النفس؛ فقد يدرك البارّ ضيقاً نفسايّاً رغماً عنه أثناء خدمتهما، فجاء التعقيب بفتح باب الغفران لـ «الأَوَّابِينَ» (الرجّاعين إلى الله بسرعة عند الزلل).

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الوالِدُ أوسطُ أبوابِ الجنَّةِ، فإنْ شِئتَ فأضِعْ ذلك البابَ أو احفَظْه[2].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رِضا اللَّهِ في رِضا الوالِدَينِ، وسَخَطُ اللَّهِ في سَخَطِ الوالدينِ[3].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يدخلُ الجنَّةَ منَّانٌ، ولا عاقٌّ، ولا مُدمنُ خمرٍ[4].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: رَغِمَ أنفُه، ثُمَّ رَغِمَ أنفُه، ثُمَّ رَغِمَ أنفُه، قيلَ: مَن يا رَسولَ اللهِ؟ قال: مَن أدرَكَ والِدَيه عِندَ الكِبَرِ أحَدَهما أو كِلَيهما، ثُمَّ لَم يَدخُلِ الجَنَّةَ[5]..

---

1 – أخرجه البخاري (3884)، ومسلم (24، والنسائي (2035)، وأحمد (23674) باختلاف يسير.

2 - أخرجه الترمذي (1900) واللفظ له، وابن ماجه (3663)، وأحمد(27551) ، خلاصة الحكم على سنده: صحيح.

3 - أخرجه الترمذي (1899) وابن حبان (429) والبيقي في شعب الإيمان (7883)، خلاصة الحكم على سنده: صحيح.

4 – أخرجه النسائي (5688) وأحمد (6882)، والدارمي (2094)، وابن حبان(3384) ، وصحح الألباني إسناده.

5 – أخرجه مسلم (255) من أفراد مسلم على البخاري.

الاقتصاد الاجتماعي والتوازن المالي: *﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، «عْنِي صِلَةَ الرَّحِمِ وَأَرَادَ بِهِ: قَرَابَةَ الْإِنْسَانِ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ»

﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾: «أَيْ: لَا تُنْفِقْ مَالَكَ فِي الْمَعْصِيَةِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ أَنْفَقَ الْإِنْسَانُ مَالَهُ كُلَّهُ فِي الْحَقِّ مَا كَانَ تَبْذِيرًا وَلَوْ أَنْفَقَ مُدًّا فِي بَاطِلٍ كَانَ تَبْذِيرًا.

وَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنِ التَّبْذِيرِ فَقَالَ: إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، قَالَ شُعْبَةُ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ أَبِي إِسْحَاقَ فِي طَرِيقِ الْكُوفَةِ فَأَتَى عَلَى بَابِ دَارٍ بُنِيَ بِجِصٍّ وَآجُرٍّ فَقَالَ: هَذَا التَّبْذِيرُ» [1]..

إشراقة بلاغية: عبّر بـ «حَقَّهُ» للإشارة إلى أن هذا المال ليس فضلاً منك أو صدقة تتمنن بها، بل هو حق أصيل لهم في مال الله الذي استخلفك فيه.

وهنا تأتي مسألة: متى فرضت الزكاة؟ أفي مكة أم في المدينة؟ والجواب: كان ابتداء فرض الزكاة بمكة قبل الهجرة، ثم من السنة الثانية من الهجرة تم تحديد مقاديرها وأنصبتها وتفصيل أحكامها. ولهذا يطلق بعض العلماء القول بأن الزكاة فرضت في السنة الثانية.

قال ابن كثير رحمه الله: "لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) [الأنعام:141]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة" انتهى.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "فرضت الزكاة في أصح أقوال أهل العلم بمكة، ولكن تقدير الأنصبة والأموال الزكوية وأهل الزكاة كان بالمدينة" انتهى [2]..

*﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ...﴾، التشنيع الأسلوبي: الإخوة هنا تعني المشاكلة والاتباع في النهج والمصير. والتعبير بـ «إِخْوَانَ» أبلغ في الذم من مجرد الاتباع، لأن الأخ يشابه أخاه في أخص صفاته.

*﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ... فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، الأسلوب والتربية: مراعاة المشاعر عند عدم القدرة على الإعطاء. إذا اعتذرت عن المساعدة لضيق ذات اليد، فليكن الاعتذار بلطف ووعد صادق بالبذل فور الفرج («قَوْلًا مَّيْسُورًا»).

---

1 – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص677)

2 – انظر مجموع فتاوى ابن عثيمين.(13/1357) "، والإسلام سؤال وجواب 145600

«نَزَلَتْ فِي مَهْجَعٍ وَبِلَالٍ وَصُهَيْبٍ وَسَالِمٍ وَخَبَّابٍ كَانُوا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَحَايِينِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَلَا يَجِدُ فَيُعْرِضُ عَنْهُمْ حَيَاءً مِنْهُمْ وَيُمْسِكُ عَنِ الْقَوْلِ فَنَزَلَ {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ}، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ أَنْ تُؤْتِيَهُمْ {ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا} انْتِظَارَ رِزْقٍ مِنَ اللَّهِ تَرْجُوهُ أَنْ يَأْتِيَكَ {فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا} لَيِّنًا وَهِيَ الْعِدَةُ أَيْ: عِدْهُمْ وَعْدًا جَمِيلًا وَقِيلَ: الْقَوْلُ الْمَيْسُورُ أَنْ تَقُولَ: يَرْزُقُنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ» [1].

وقد أغناهم الله من فضله بما صبروا: عن قيس بن أبي حازم قال: أتَيتُ خَبَّابًا وهو يَبني حائِطًا له، فقال: إنَّ أصحابَنا الذينَ مَضَوا لَم تَنقُصْهمُ الدُّنيا شيئًا، وإنَّا أصَبنا مِن بَعدِهم شيئًا لا نَجِدُ له مَوضِعًا إلَّا التُّرابَ [2].

وبعض المساكين تردهم التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، وهناك من ترده الكلمة الطيبة كما في الآية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليسَ المسكينُ الَّذي يَطوفُ علَى النَّاسِ تردُّهُ اللُّقمةُ واللُّقمتانِ، والتَّمرةُ والتَّمرتانِ، ولَكِنِ المسكينُ الَّذي لا يجدُ غنيا يُغنيهِ، ولا يُفطَنُ فيتصدَّقُ علَيهِ ولا يقومُ فيسألُ النَّاسَ [3].

*﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ...﴾، هنا كنايتان الأولى عن البخل والثانية عن التبذير، وصورتان لمفهومي البخل والإسراف؛ الأولى صُورة من شُدت يده إلى عنقه فلا يستطيع تحريكها للإعطاء، والثانية من فتح يده تماماً فسقط منها كل شيء. والنتيجة: «مَلُومًا» (من الناس) «مَّحْسُورًا» (كالدّابة التي أجهدها السفر فبقيت بلا حركة).

وخُتم سياق الآيات بالتذكير بأن رزق العباد بيد الخبير البصير، لحماية الإنسان من الخوف والحرص الشديدين.

حماية النفس والعِرض: *﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ...﴾: الدقة اللسانية والتفسيرية: هنا قال: «خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» وقدم رزقهم: «نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» مشعر أنّ الفقر غير حاصل بل متوقع.

بينما في سورة الأنعام قال: «مِّنْ إِمْلَاقٍ» قدم رزق الأب: «نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» مشعر أنّ الفقر حاصل بالفعل للأب. وهذا من أسرار الإعجاز البياني!

---

1 – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص678)

2 – أخرجه البخاري (6431)، ومسلم (2681).

3 - أخرجه مسلم (255) من أفراد مسلم على البخاري.

*﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، النهي عن القرب: «وَلَا تَقْرَبُوا» ليتناول النهيُ دواعي الزنا ومقدماته والنظرات والخطرات والخطوات المؤدية للوقوع فيه.

*﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾، التشريع والعدالة: إعطاء ولي المقتول «سُلْطَانًا» (حجة وشرعية للقصاص) لكن بأمر وحكم الحاكم، مع ضبط هذا السلطان بعدم الإسراف في القتل (كأن يُقتل غير القاتل أو يُمثل به).

والحق الذي أشارت إليه الآية بيّنته السنة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلَّا بإحدَى ثلاثٍ، الزِّنَى، والنَّفسُ بالنَّفسِ، والتَّاركُ لدينِه المفارقُ للجماعةِ [1].

المعاملات، الأخلاق الفردية، وحكمة التشريع: *﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾

حماية حقوق الفئات الضعيفة قاعدة من قواعد الإسلام، والعهد هنا يشمل كل ما قطع الإنسان على نفسه مع الله ومع الناس، وتذييله بـ «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» قيل في معناه: إنّ العهد يبعث كائناً يُسأل من وفّى به ومن ضيعه.

ذُكر في إعراب (كان مسؤولا) ثلاثة أوجه:

أحدها: أن ناقض العهد كان مسؤولًا عنه، أي: عن الوفاء به، فتقديره (إن ذا العهد).

والثاني: أنَّ العهد كان مسؤولا تعييرًا وتوبيخًا لناقضيه، كقوله: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ}

والثالث: على أن العهد كان مطلوبًا يطلب من العاهد ألا يضَيّعَه ويفي به»

فعلى الإعراب الثاني يُبعث العهد يوم القيامة مجسماً، ويُسأل: مَن ضيعك ومَن رعاك؟ ليكون شهيداً للموفي وحجة على الخائن.

ويلتقط سيد قطب – رحمه الله - في "ظلال القرآن" هذا الخيط بأسلوبه التصويري المشهود: "العهد شخصٌ يُسأل.. يُسأل عمن عاهده: أأوفى به أم خان؟

وفي هذا التعبير ظلال تشي بالحياة والحركة، وتجعل للعهد كياناً حياً يطالب بحقه، ويحاكم من غدر به".

الجملة صدرت بـ (إنّ) المشبهة بالفعل، وهي تفيد التوكيد السلوكي والنفسي لإزالة أي تردد في الوفاء.

---

1 - أخرجه مطولاً البخاري (6878) بلفظ: "والمارق من الدين"، ومسلم (1676) باختلاف يسير.

كما أنّ التركيب الأسلوبي يعتمد على التعليل. فالأمر "وأوفوا" تبعه تعليل "إن العهد كان مسؤولاً". هذا البناء يربي الوجدان؛ فالإسلام لا يعطي أمراً جافاً، بل يربطه بالرقابة الذاتية والمسؤولية الأخروية الشاملة.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في رسائله في الفقه والسلوك إلى أن التزام العهود هو قطب الرحى في صلاح بني آدم، وأن تعليل الأمر بمسؤولية العهد يقطع الأعذار والتأويلات الفاسدة التي يتذرع بها الناس لنقض عهودهم عند تغير المصالح.

تكرار لفظة (الْعَهْد) مرتين في جملة قصيرة جداً (بالعهد / إن العهد) يخرج عن الأصل اللساني القاضي بالإيجاز والإضمار، عدل عن الإضمار إلى الإظهار لتفخيم شأن العهد، وتهويل أمر نقضه، وتثبيت اللفظة في ذهن السامع لتبدو كشعار مستقل محكم وقائم بذاته.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا من الإخلال بالعهود: من ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: «المسلمون عند شُروطهم»، وقوله: «آية المنافق ثلاثٌ: إذا حدّث كذَبَ، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف»، وقوله: «يُنْصَبُ لكلِّ غادر لواءٌ عند اسْتهِ يومَ القيامة بقدر غَدْرَته»، وقوله: «لا تغدروا»، وقوله: «إن الغدر لا يصلح»، وقوله في صفة المنافق: «إذا وعد أخلف»، وإخلاف الوعد مما فطر الله العباد على ذَمّه واستقباحه، وما رآه المؤمنون قبيحًا فهو عند الله قبيح [1].

*﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ...﴾: إقامة العدل في المعاملات التجارية. و«القِسْطَاسِ» هو الميزان الدقيق، وفيه إشارة إلى سلامة الاستقامة الاقتصادية للمجتمعات.

*﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾: المنهج العلمي والعقلي: قاعدة شمولية تمنع اتباع الظن، والإشاعات، والشهادات الزائفة، أو القول بلا علم. التذييل بخضوع الجوارح («السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ») للمسؤولية يُمثّل إعلان الاستقلال الفكري والمسؤولية الأخلاقية الفردية.

*﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ ولن تبلغ الجبال طولا﴾: اسلوب التهكم والتقزيم البلاغي لكسر كبرياء المتكبر؛ فالإنسان مهما بلغ من القوة والصلابة لن يستطيع خرق الصلد من الأرض، ومهما تطاول لن يطاول الجبال استطالة. ونصبت (طولا) على التمييز.

ذكر البغوي وغيره هنا مشية النبي صلى الله عليه وسلم وشيء من صفاته لئلا يفهم أن قوة المشي وسرعته المعتدلة توحي بالكبر فهو صلى الله عليه وسلم - بأبي

1 - انظر ابن القيم: إعاثة اللهفان (ج2/ص732)، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

هو وأمي - سيد المتواضعين: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ليسَ بالطَّويلِ ولا بالقصيرِ ضخمَ الرَّأسِ واللِّحيةِ شثنَ الكفَّينِ والقدمينِ مُشرَبًا وجهُه حُمرةً إذا مشى تَكفَّأَ كأنَّما ينحدِرُ من صبَبٍ لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه [1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيتُ شيئًا أَحسَنَ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كأنَّ الشَّمسَ تجري في وَجْهِه، وما رأيتُ أحدًا أَسرَعَ في مِشيَتِه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كأنَّما الأرضُ تُطْوَى له، إنَّا لَنُجهِدُ أنفُسَنا، وإنَّه لَغيرُ مُكتَرِثٍ [2]..

عن أنس رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دخَلَ مكَّةَ وذَقَنُه على رَحْلِهِ مُتخشِّعا[3].

الخاتمة: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾؛ وكل ما أمر الله به أو نهى عنه فهو حكمه، لتُردّ هذه الأوامر والنواهي كلها إلى القطب الذي بدأت منه: التوحيد والتحذير من الشرك ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾.

مناقشة عقائد المشركين وإعجاز القرآن: *﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا..﴾

الاستفهام الإنكاري والتوبيخي: تزييف عقيدة المشركين الذين ينزهون أنفسهم عن الإناث والبنات ويعزونها لله جل جلاله! وصف القول بأنه «عَظِيمٌ» في الجرأة والافتراء.

وهو قريب من تشنيعه سبحانه على افتراء النصارى في قولهم عن عيسى عليه السلام أنه ابن الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:88-92].

*﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، التصريف: تنويع الحجج والضرب للأمثال والأساليب لعلهم يستجيبون، لكن القلوب المريضة تزداد بعداً واستكباراً.

---

1 - أخرجه أحمد (746)، والحاكم (4194)، والبزار (474) واللفظ لهم جميعا، والبزار في الأحكام الشرعية الكبرى (ج4/ص312)، وسنده أحسن إسناداً يروى عن علي في هذا الشأن وأشدها اتصالا.

2 - أخرجه الترمذي (3648)، وأحمد (8943) واللفظ له، وصحح سنده شعيب الأرناؤوط وغيره.

3 - أخرجه البيهقي في ((الدلائل)) (5/ 68) واللفظ له، وأبو يعلى (3393)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (4/ 80) بنحوه، والحاكم في مستدركة وقال: سنده على شرط مسلم.

*﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، الدليل العقلي والكوني:

«يَقُولُ: لَابْتَغَتْ الْحَوَائِجُ مِنْ اللَّهِ. وَعَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قتادة: {لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} لَابْتَغَوْا التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ. وَعَنْ سَعِيدٍ عَنْ قتادة: {لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} يَقُولُ: لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ إذًا لَعَرَفُوا لَهُ فَضْلَهُ وَمَزِيَّتَهُ عَلَيْهِمْ وَلَابْتَغَوْا إلَيْهِ مَا يُقَرِّبُهُمْ إلَيْهِ. وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: لَتَعَاطَوْا سُلْطَانَهُ. وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الهذلي عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: سَبِيلًا إلَى أَنْ يُزِيلُوا مُلْكَهُ والهذلي ضَعِيفٌ» [1].

التسبيح الشامل ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾؛ تنزيه لله من كافة مخلوقاته سبحانه؛ الكون كله يتعبد لله بلغات وطرق لا نفقهها، مما يبرز ضعة الشرك والمشركين الذين شذوا عن هذا التوافق الكوني.

وكثيرا ما يهون الله سبحانه وتعالى حال المشركين على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين في مواضع عدة من كتابه: كما في قوله تعالى: (جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ) [ص:11]، (جند ما) مجهول، منكر، هين الشأن، (مهزوم)، كأن الهزيمة صفة لازمة له، لاصقة به، مركبة في كيانه، (من الأحزاب) . . المختلفة الاتجاهات والأهواء!

وما يبلغ أعداء الله ورسوله إلاّ أن يكونوا في هذا الموضع الذي تصوره ظلال التعبير القرآني، الموحية بالعجز والضعف والبعد عن دائرة التصريف والتدبير، مهما تبلغ قوتهم، ويتطاول بطشهم، ويتجبروا في الأرض فترة من الزمان [2]..

*﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا...﴾

الحجاب المستور: اسم المفعول «مَّسْتُورًا» هنا قد يأتي بمعنى الفاعل «ساتراً»، أو حجاباً غير مرئي بالعين البصرية ولكنه قائم بالمعنى المعنوي والنفسي؛ حيث تحول أقفال قلوبهم دون نفوذ هداية القرآن إليها.

*﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ

1 - انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوي (ج16/ص122)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

2 - انظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ج5/ص3013)

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (47) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾،

قال في موقع الإسلام سؤال وجواب، جوابا لسؤال: هل صحت الروايات التي تتحدث عن اعجاب وانبهار قريش بالقران؟

روي في هذا الباب عدد من الروايات تفيد استشعار سادة قريش لعظمة القرآن الكريم وإعجابهم به، ومن ذلك:

1- قصة استماع أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق لتلاوة النبي صلى الله عليه وسلم.

كما روى البيهقي في "الدلائل" (2 / 206)، وغيره: عن ابن إسحاق، قال: حدثني محمدُ بنُ مسلمِ بْنِ شهابٍ الزهريُّ أَنَّهُ حُدِّث: (أَنَّ أَبَا سُفْيان بْنَ حَرْبٍ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَالْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيق بن عَمرو بن وهب الثَّقفي حليف بني زُهْرة خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ. فَأَخَذَ كلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا يَسْتَمِعُ فِيهِ، وَكُلٌّ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ.

فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إذَا طَلَعَ الفجرُ تَفَرَّ قُوا فَجَمَعَهُمْ الطريقُ، فَتَلَاوَمُوا، وَقَالَ بعضُهم لِبَعْضٍ: لَا تَعُودُوا، فَلَوْ رَآكُمْ بعضُ سُفَهَائِكُمْ لَأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا. ثُمَّ انْصَرَفُوا.

حَتَّى إذَا كَانَتْ الليلةُ الثَّانِيَةُ، عَادَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إلَى مَجْلِسِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إذَا طَلَعَ الفجرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمْ الطريقُ، فَقَالَ بعضُهم لِبَعْضٍ مثلَ مَا قَالُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ. ثُمَّ انْصَرَفُوا.

حَتَّى إذَا كَانَتْ الليلةُ الثالثةُ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مجلسَه، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إذَا طَلَعَ الفجرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمْ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا نَبْرَحُ حَتَّى نتعاهدَ ألا نعود على ذلك ثم تفرقوا.

فهذا الخبر من حيث الإسناد لا يصح؛ للجهالة بحال من حدّث الزهري بالخبر حيث لم يسمّه.

2- ومن ذلك أيضا: ما رواه البيهقي في " دلائل النبوة" (2/ 205)، و أبو نعيم في "الدلائل" (ص 233):

بسنده إلى أَنّ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ عَلَى عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ (حم ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَتَى أَصْحَابَهُ فَقَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمُ ، أَطِيعُونِي فِي هَذَا الْيَوْمِ واعصوني فيما بعده، فوالله لَقَدْ سَمِعْتُ مِنَ هَذَا الرَّجُلِ كَلَامًا مَا سَمِعَتْ أُذُنَايَ قَطُّ كَلَامًا مِثْلَهُ وَمَا دَرَيْتُ مَا أَرُدُّ عَلَيْهِ.

وفي إسناده الْمُثَنَّى بْنُ زُرْعَةَ، وهو مجهول، قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

"وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه" انتهى من "البداية والنهاية /4) " 160).

3- ومنه: ما رواه الحاكم في "المستدرك" (2/ 506)، وعنه البيهقي في "الدلائل" (2 / 198)، قال: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ الصَّنْعَانِيُّ بِمَكَّةَ، حدثنا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَنْبَأَنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا.

قَالَ: لَمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ.

قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ! فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ .

قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...) .

وقال الحاكم: " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ "، ووافقه الذهبي.

لكن في إسناده شيخ الحاكم أبو عبد الله محمّد بن عليّ الصّنعانيّ، مجهول الحال. وقد رواه بعضهم عن عكرمة مرسلا.

قال البيهقي رحمه الله تعالى عقب الحديث: "هكذا حدثناه موصولا.

وفي حديث حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة، قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له : اقرأ علي، فقرأ عليه: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

قال: أعد، فأعاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر.

وهذا فيما رواه يوسف بن يعقوب القاضي، عن سليمان بن حرب، عن حماد، هكذا مرسلا.

وهذا الخبر مشهور عند أئمة السير والتفسير، فقالوا : في الوليد بن المغيرة نزلت الآيات:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) [المدثر:11-26].

قال الواحدي رحمه الله تعالى: "وأجمعوا على أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة " انتهى. "التفسير البسيط.(416 /22) "

وقال ابن عطية رحمه الله تعالى:

"ولا خلاف بين المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي " انتهى. "المحرر الوجيز.(394 / 5) "

فالحاصل: أن هذه الأخبار وإن كانت لا تخلو أسانيدها من مقال؛ إلا أن ضعفها ليس بشديد، وهي مشهورة عند أهل السير، فمثلها يستأنس بها ولا يتشدد في نقدها[1]..

*﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ ضربوا لك الأمثال: أي الاشباه، قالوا: شاعر، وساحر، وغيره، (فضلوا) فحاروا وحادوا، (فلا يستطيعون سبيلا): أي: وصولا إلى طريق الحق.

تصوير حالة العناد: وصف جلساتهم السريّة «إِذْ هُمْ نَجْوَىٰ» واتهاماتهم الباطلة للنبي باللسان العاجز: «إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا»، ثم ختم الحق سبحانه بتوبيخهم وإبراز ضلالهم المتردي: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا».

(وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (53) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ

1 - انظر موقع الإسلام سؤال وجواب، السؤال 446482

مَسْطُورًا(58) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65) رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (67) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا(69)).

هذا الدرس الجليل من سورة الإسراء مَلحمةً بيانيّةً ولسانيّةً ومفهوميّةً تتناول قضيّة الإيجاد والإعادة، وجدليّة التوحيد والشِرك، وطبيعة النفس البشريّة بين الاستكبار والاضطرار.

أولاً: الهندسة السياقية والانتظام الأسلوبي: يتحرك النص عبر أربعة محاور سياقية تتلاحم هندسياً:

شبهة البعث والرد المعجز: الانتقال من إنكار المشركين المتكلس إلى قياس القدرة الأولى.

*﴿وقالوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾؛ الاستفهام هنا للإنكار والاستبعاد. اختيار كلمة "رُفاتًا" (المفتوت والمتحلل) يجسد الذروة في التلاشي.

العدول والترقي الأسلوبي: يأمر الله نبيه بالرد المتهكم بأيدولوجيتهم: *﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾؛ أي لو تحولتم إلى أصلب المواد التي لا تقبل الحياة بزعمكم، فإن الله قادر على إحيائكم. ثم الترقي: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ (كالسموات أو الموت نفسه).

*﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾

الحركة الجسدية باللسان: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾؛ "النغض" حركة تهكمية تحريك للرأس إلى الأسفل والأعلى استهزاءً. عبّر القرآن بالصورة المرئية لتسجيل الحالة النفسية الجاحدة.

*﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فهي كقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: كان رجلٌ يُسرِفُ على نفسِه، لمَّا حضره الموتُ قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرِقوني ثمَّ اطحَنوني، ثمَّ ذروني في الرِّيحِ، فواللهِ لئن قدَر اللهُ عليَّ ليُعذِّبُني عذابًا ما عذَّبه أحدًا، فلمَّا مات فُعِل به ذلك، فأمر اللهُ الأرضَ فقال: اجمعي ما فيك ففعلتْ، فإذا هو قائمٌ فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: خشيْتُك يا ربِّ، أو قال: مخافتُك، فغفَر له [1].

الأدب اللفظي: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ استخدام صيغة المفاضلة "أَحْسَنُ" وليست "الحسنة" فقط، لأن الشيطان يتربص بالكلمة "الحسنة" ليجعل منها فتنة، فالاحتراز بالأنقى والأطيب يقطع دابر النزغ (﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد ويلقي العداوة بينهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مبينا﴾ أي ظاهر العداوة.

*﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ يوفقكم فتؤمنوا، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ﴾ يميتكم على الشرك فتعذبوا، قاله ابن جريج، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ حفيظاً وكفيلاً.

لما أُمِر النبي ﷺ بالرفق في البلاغ وأن لا يضيق صدره بإنكارهم، وأمر المؤمنين بأن يختاروا من القول أحسنة تجنباً لنزغ الشيطان، جاءت الآية هذه الآية لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن هدايتهم وعذابهم ليس موكولاً إليه، بل هو إلى علم الله ومشيئته؛ فليس عليك إلاّ البلاغ.

فهي قريبة من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

ثم جاء بعدها قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ تأكيداً لشمول العلم الإلهي لجميع أهل السماوات والأرض، ثم أعقبتها بسط حكمة التفضيل الإلهي بين النبيين وإيتاء داود الزبور، ليُفهم أن الله يختص برحمته وفضله من يشاء بحكمة بالغة، وكما فُضّل

1 - أخرجه البخاري (3481)، ومسلم (2756) باختلاف يسير.

بعض الأنبياء على بعض، قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَكَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا وَقَالَ لِعِيسَى: كُنْ فَيَكُونُ (1) وَآتَى سُلَيْمَانَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَآتَى دَاوُدَ زَبُورًا كَمَا قَالَ: {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} وَالزَّبُورُ: كِتَابٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ دَاوُدَ يَشْتَمِلُ عَلَى مِائَةٍ وَخَمْسِينَ سُورَةً كُلُّهَا دُعَاءٌ وَتَمْجِيدٌ وَثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ فِيهَا حَرَامٌ وَلَا حَلَالٌ وَلَا فَرَائِضُ وَلَا حُدُودٌ.

مَعْنَاهُ: إِنَّكُمْ لَمْ تُنْكِرُوا تَفْضِيلَ النَّبِيِّينَ فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ فَضْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِعْطَاءَهُ الْقُرْآنَ؟ وَهَذَا خِطَابٌ مَعَ مَنْ يُقِرُّ بِتَفْضِيلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ [1].

الانتقال لذكر داود عليه السلام وإيتائه الزبور بعد ذكر تفضيل النبيين، هو إشارة بلاغية دقيقة تناسب سياق "الإسراء" و"القرآن"؛ فالزبور كتاب تسبيح وذكر لا أحكام تشريعية ثقيلة، وفيه تنبيه للمشركين أن الله ينزل الكتب على من يشاء بحسب حكمته، وأن تنزيل القرآن على محمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل بل هو سنة إلهية في الاصطفاء والتفضيل.

تتجلى في قوله ﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ قاعدة القدر والحكمة؛ فالمشيئة الإلهية تابعة لحكمته وعلمه، وليست مجرد إرادة عبثية، بل هي مرتبطة بأسباب صاغها العدل والعلم الإلهي المحيط بصدور العباد وما تنطوي عليه سرائرهم.

كما ترتكز النظرة هنا على "تحديد التبعة النفسية والرسالية"؛ فالداعية أو النبي يبلغ أقصى طاقته في قول "التي هي أحسن" والمجادلة بالتي هي أحسن، لكنه لا يملك قلوب الناس ولا هدايتهم القسرية؛ فالأمر مردود إلى علم الله ومشيئته، وبذلك يستريح قلب الداعية من عبء النتائج الثقيل، ليمضي في طريقه بلا قنوط ولا إكراه.

أن المعنى التفسيري يدور حول أن الله أعلم بمن أسرّ الكفر أو أعلن الإيمان، وهو الموفق لمن يشاء هدايته بحكمته، والمخذول لمن ختم على قلبه، والنبي ﷺ بريء من تتبّع هدايتهم.

التجريد والتوهين لأوهام الشرك: الاستغراق والتقسيم: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾؛ حصر العجز في أمرين: عدم القدرة على الإزالة بالكلية (الكَشْف)، ولا النقاط التأثيرية بالتحويل إلى غيركم أو إلى حال آخر (التَّحْوِيل).

المحاججة بالحال: *﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾؛ وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ "أُولَئِكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ" بِالتَّاءِ، وهنا التفات بلاغي عجيب؛ المعبودون دون الله

1 – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص684)

(الملائكة، الأنبياء) هم أنفسهم يتنافسون في القربى لله، فكيف يُدعون من دونه؟، سبق الحديث عن سبب نزول هذه الآية في مقدمة هذا البحث.

*﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا، وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

قال البغوي: «أي: مخربوها ومهلكوها أَهْلَهَا ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِذَا كَفَرُوا وَعَصَوْا وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ: مُهْلِكُوهَا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِمَاتَةِ وَمُعَذِّبُوهَا فِي حَقِّ الْكُفَّارِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أَذِنَ اللَّهُ فِي هَلَاكِهَا، ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿مَسْطُورًا﴾ مَكْتُوبًا.

قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ اكْتُبْ فَقَالَ مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ الْقَدَرُ وَمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ"»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: سأل أهلُ مَكَّةَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم أنْ يَجعَلَ لهمُ الصَّفا ذَهبًا، وأنْ يُنَحِّيَ الجبالَ عنهم فيَزْدَرِعوا، فقِيلَ له: إنْ شِئْتَ تَسْتَأْني بهِم، وإنْ شِئْتَ أنْ نُعْطِيَهُمُ الَّذي سألوا, فإنْ كَفروا أُهْلِكوا كما أَهْلَكْتُ مَن قَبْلَهُم، قال: لا، بل أَسْتَأْني بهِم. فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [2].

*﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ﴾ أَيْ: هُمْ فِي قَبْضَتِهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْخُرُوجِ عَنْ مَشِيئَتِهِ فَهُوَ حَافِظُكَ وَمَانِعُكَ مِنْهُمْ فَلَا تَهَبْهُمْ وَامْضِ إِلَى مَا أَمَرَكَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾: الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ مَا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَمَسْرُوقٍ وَقَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَالْأَكْثَرِينَ،

---

1 - أخرجه أبو داود (4700) واللفظ له، والترمذي (3319)، وأحمد (22705) بنحوه، وصحح الألباني إسناده، وانظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص684).

2 - أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (11290)، وأحمد.(2333) ، وقال الوادعي في الصحيح المسند عن سنده: صحيح على شرط الشيخين.

وَالْعَرَبُ تقول: رأيت بعين رُؤْيَةً وَرُؤْيَا فَلَمَّا ذَكَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلنَّاسِ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ وَكَذَّبُوا فَكَانَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ

«وَقَالَ قَوْمٌ: أَرَادَ بِهَذِهِ الرُّؤْيَا مَا رَأَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ هو وأصحابه فجعل السَّيْرَ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ الْأَجَلِ فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ رُجُوعُهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ بَعْدَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ يَدْخُلُهَا فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ حَتَّى دَخَلَهَا فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الْفَتْحِ:27].

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾: يَعْنِي شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، مَجَازُهُ: وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ طَعَامٍ كَرِيهٍ: طَعَامٌ مَلْعُونٌ. وَقِيلَ: [مَعْنَاهُ الْمَلْعُونُ] (6) آكِلُهَا وَنُصِبَ الشَّجَرَةُ عَطْفًا عَلَى الرُّؤْيَا أَيْ: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ فَكَانَتِ الْفِتْنَةُ فِي الرُّؤْيَا مَا ذَكَرْنَا.

وَالْفِتْنَةُ فِي الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: إِنَّ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُوعِدُكُمْ بِنَارٍ تُحْرِقُ الْحِجَارَةَ ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْبُتُ فِيهَا شَجَرَةٌ وَتَعْلَمُونَ أَنَّ النَّارَ تُحْرِقُ الشَّجَرَةَ.

وَالثَّانِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزِّبَعْرَى قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُخَوِّفُنَا بِالزَّقُّومِ وَلَا نَعْرِفُ الزَّقُّومَ إِلَّا الزُّبْدَ وَالتَّمْرَ وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا جَارِيَةُ تَعَالِي فَزَقِّمِينَا فَأَتَتْ بِالتَّمْرِ وَالزُّبْدِ فَقَالَ: يَا قَوْمُ [تَزَقَّمُوا] (7) فَإِنَّ هَذَا مَا يُخَوِّفُكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ فَوَصَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الصَّافَّاتِ»[1].

*﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا، قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

*﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾: مأخوذة من "الحَنَك"؛ وهو وضع اللجام في حنك الدابة لتقييدها وتوجيهها حيث يشاء المستكبر.

*﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا، وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾: استخفف واستجهد... ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: اجمع عليهم مكايدك وخيلك وجندك، قال أهل التفسير: كل راكب وماشٍ في معاصي الله فهو من جند إبليس، وقال مجاهد وقتادة: إنّ له خيلاً و(رَجِلاً) وهم المشاة من الجند، وهم كل من يقاتل في المعصية ، وقال البلاغيون: هنا استعارة لميدان الحرب. استخفاف

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص685).

الغافلين بصوته (الدعوة للمعصية والملاهي)، وحشد جنده الركبان والفرسان (أهل الباطل).

المقابلة التقريرية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ إضافة العباد إلى ياء المتكلم (عبادي) تشريف وتأمين، يقطع أمل إبليس في القلوب المخلصة.

هذه الآية، ومثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، تطئن المؤمن سؤاء في حياته العامة أو مرضه، ويمكن أن يستفيد منها حتى الرقاة وغيرهم، فالجن والشياطين لا تسلط على المؤمن المتوكل على ربه، وإنما تسلط على من يتخذهم أولياء. والله أعلم.

*﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾:

التقابل الأسلوبي بين الضيق والسعة:

في البحر: *﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ -> خلوص للتوحيد تحت وطأة الخوف الاضطراري.

في البر: ﴿فلما نجاكم إلى البر أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ -> الارتداد إلى الجحود بمجرد الشعور الظاهري بالأمان.

وفي هذا مشاهد وقصص تحصل للأفراد والجماعات، نسأل الله الهدى والثبات، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُكثرُ أن يقولَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبِي على دينِك فقلت يا نبيَّ اللهِ آمنَّا بك وبما جئتَ به فهل تخافُ علينا؟ قال نعم إن القلوبَ بينَ إصبعينِ من أصابعِ اللهِ يُقلِّبُها كيفَ يشاءُ[1].

*﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا، أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾

الزجر بالاستفهام التهديدي: تتوالى الأدوات التفزيعية (﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾، ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾) مع تنويع العقوبات الممكنة في البر كما في البحر (﴿خَسْف، حَاصِب، قَاصِف﴾) لإبطال وهم "الأمان في الجغرافيا".

---

1 - أخرجه الترمذي (2140)، وأحمد (13696) باختلاف يسير، وابن ماجه (3834) بنحوه، وقال المناوي في كشف المناهج والتناقيح (ج1/ص112): رجاله رجال مسلم في الصحيح.

يرى البقاعي – رحمه الله - أن السورة تبدأ بالتسبيح وتنزيه الله عن العجز، وتأتي هذه الآيات لتبيان كمال القدرة في إعادة الخلق من العدم، ورداً على الشبهات المتعلقة بالبعث بالتدرج البرهاني المنطقي.

التركيز على فطرة التوحيد وطبيعة النفس: استشهدا بآيات البحر على أن التوحيد غريزة أصيلة في الإنسان تُشرق عند الشدائد وتضمحل عند أوهام الأسباب. كما أشار ابن القيم إلى قوله ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ بأن السعادة والسلامة تكمن في الخروج من قيود الشيطان إلى حصر العبودية لله، وحظرها عن سواه.

التدقيق في الخصائص اللغوية: نبه إلى دقة اختيار الكلمات مثل "يُزْجِي" (سوق الفلك بسهولة ولطف)، و"الرُّفَات" (الدقيق المتفتت)، ومفهوم "الوسيلة" التي تعني التقرب بالطاعة لا بذوات المخلوقين.

البعد النفسي والظلال الحركية: يرسم سيد قطب – رحمه الله - المشهد بأسلوب تصويري حافل بالحركة: معركة إبليس ضد الإنسان هي معركة الوعي، والخيط الدقيق الذي ينقذ الإنسان هو الالتجاء لحماية الله (﴿وكفى بربك وكيلا﴾). بينما يبرز محمد قطب – رحمه الله - جحود الفطرة البشرية حين تتنكر للنعمة بمجرد زوال الخطر.

خلاصة التلقي والرؤية الكلية: تتسق آيات هذا المقطع لتصوغ دليل الاعتبار والوجود:

بدءاً من الاستبعاد التعليلي للبعث، مروراً بمكائد الشيطان الدائبة لاستعباد بني آدم، وانتهاءً بتقلب الإنسان بين اللجوء إلى الله في لحظات العجز والانقلاب عليه عند رخاء الأسباب. والمخرج الفردي والجمعي المتردد عبر النص هو الاعتصام بالتوحيد خالصاً، والالتزام بأحسن القول، والوعي الدائم بعداوة إبليس.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا(75) وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (79) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (84) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا(86) إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (94) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (95) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(96) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا(100)

هذا الدرس السَّنيّ من سورة "الإسراء" يُقيّمَ مِحْوَرَ التَّكريمِ الإلهيّ للإنسانِ، ويُعرِض مُواجَهَةَ الحَقّ مع الباطِلِ، وثَباتَ النُّبوَّةِ أمامَ المَكْرِ والكِبْرِ البَشَرِيّ.

*﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

استهلالٌ بالقَسَم والتحقيق ﴿وَلَقَدْ﴾ لِتَقريرِ الأَصْلِ العَظيم؛ تكريمُ الإنسانِ بالعَقْلِ والفِطْرَةِ والهَيْئَةِ الحَسَنَة.

﴿كَرَّمْنَا﴾ بالتضعيف للتكثير. و﴿حَمَلْنَاهُمْ﴾ إسنادُ الحَمْلِ إلى الذاتِ العَلِيّةِ لِلتَّأنيسِ ورِعايَةِ التَّسْخير.

إشراق بلاغية: قدّم البرَّ على البَحْرِ لأصالتِهِ في مَسْكَنِهِم، والتَّفضيلُ جاء بـ ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ وليس "كل" احترازاً، وفيه لمسَةٌ استدلاليّة: الذي كَرَّمَكُم يقتضي ألا تُشْرِكوا به.

قال قوم: فضلوا على جميع الخلق إلاّ على الملائكة، وقال الكلبي: فضلوا على الخلائق كلهم، إلا طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وأشباههم.

وقال سيد قطب في ظلال القرآن: كرمه بخلقه على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان

وكرمه بالاستعدادات التي أودعها في فطرته، التي استأهل بها الخلاف في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، يركّب فيها ويحلل، يلغ بها الكمال المقدر للحياة.

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك المركب الذي أسجد له الملائكة وأعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض، القرآن[1].

*﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

نَقْلَةٌ سياقيّة من تكريمِ الدُّنيا إلى حِسابِ الآخِرَة. ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بنَبِيِّهِم أو كتابِ أَعْمالِهِم (كما عِنْدَ ابنِ جَرير وابنِ كَثير).

إشراقة بلاغية: ﴿بِيَمِينِهِ﴾ كِنايَةٌ عَن العِزِّ والبُشْرى. ورابِطُ ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ يُصورُ سُرورَهُم وانْشِراحَ صُدورِهِم بِقِراءَتِهِم.

هذا السرور ذكره سبحانه وتعالى وصرح به سورة الحاقة: *﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:19-24]

الفتيل: النَّواةُ أو الخَيْطُ الذي في شَقِّ النَّواة؛ ضربُ مَثَلٍ لِغايةِ الدِّقّةِ في العَدْلِ وعدم النَّقْصِ.

*﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: ﴿أَعْمَىٰ﴾ الأولى عَمَى البَصيرةِ والقَلْبِ عَن دَلائِلِ التَّوحيد، والثانيةُ عَمَى العَيْنِ أو زِيادَةُ الحَيْرَةِ والجَزاءِ المُمَثَّلِ لِحالِه.

1 -انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي(معالم التنزيل) (ص 688) ، سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2241)

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾،

يقول سيد قطب رحمه الله (في ظلال القرآن): ومن عمى في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير، وأشد ضلالا، وجزاؤه معروف، ولكن السياق يرسمه في المشهد المزدحم الهائل، أعمى، ضالاً يتخبط، لا يجد من يهديه ولا يهتدي به، ويدعه كذلك، لا يقرر في شانه أمراً، لأنّ مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب، يؤثر في القلوب [1]..

استعمالُ لَفْظِ العَمَى لِلحالَتَيْنِ فيه مشاكلَةٌ بَديعيّةٌ تُؤَكِّدُ الارْتِباطَ العِلِّيَّ بَيْنَ حِرْمانِ الهِدايَةِ في الدُّنيا وعُمي المَصيرِ في الآخِرَة.

*﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

تُصَوِّرُ المَكْرَ المَكِيَّ لِمُحاوَلَةِ اسْتِدْراجِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُصانَعَةِ والتَّنازُلِ عَن شَيْءٍ مِنَ الوَحْي، أي: إن كادوا ليصرفونك عن القرآن وغيره من وحي النبوة والرسالة لتختلق علينا وتفتري غيره، ولو فعلت ذلك لوالوك وصافوك.

﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾، ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾، ﴿خَلِيلًا﴾. تَدَرُّجٌ أسلوبيٌّ خَبيثٌ يُمَثِّلُ سيكولوجيّةَ أهْلِ الباطِلِ في اسْتِقْطابِ الحَقّ.

*﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي: ثبتناك على الحق بعصمتنا، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ أي: تميل، ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي: قريبا من الفعل، ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي: لو ملت إليهم لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أي: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، وقيل: الضعف هو العذاب، سمى ضعفاً لتضاعف الألم فيه.

وَقَدْ ثَبَّتَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَرْكَنْ وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا" (النِّسَاءِ-83) [وَقَدْ تَفَضَّلَ عليهم فَلَمْ يَتَّبِعُوا]، ففيها إسنادُ العِصْمَةِ والثَّباتِ للهِ وَحْدَه، وتَنْبيهٌ لِأُمَّتِهِ أنَّ العِصْمَةَ ليستْ بشَخْصَنَةٍ جَبَلِيَّة بَلْ برِعايَةٍ إلهيّة.

وفيها التهديد والافتراض: ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ عذاباً مُضاعَفاً؛ لأنَّ المَقامَ الشَّريفَ إذا نالَهُ الإنْحِرافُ كَبُرَتْ جَريرَتُه.

1 -انظر سيد قطب: في ظلال القرآن (ج4/ص2241)

*﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْآيَةِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ مَدَنِيَّةٌ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: "الْأَرْضُ" أَرْضُ مَكَّةَ وَالْآيَةُ مَكِّيَّةٌ هَمَّ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُخْرِجُوهُ مِنْهَا فَكَفَّهُمُ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى أَمَرَهُ بِالْهِجْرَةِ فَخَرَجَ بِنَفْسِهِ وَهَذَا أَلْيَقُ بِالْآيَةِ لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ،

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قيل: ما بين هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى قتلوا يوم بدر. وقيل: مدة حياتهم، وهي قصيرة [1]..

﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أصلُها الاِسْتِخْفافُ والإزْعاجُ لِإخْراجِهِ من مَكَّة. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: *﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾، أَيْ: كَسُنَّتِنَا فَانْتَصَبَ بِحَذْفِ الْكَافِ وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي الرُّسُلِ إِذَا كَذَّبَتْهُمُ الْأُمَمُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ مَا دَامَ نَبِيُّهُمْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَإِذَا خَرَجَ نَبِيُّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ عَذَّبَهُمْ، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، أَيْ تَبْدِيلًا.

*﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا، أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

اخْتَلَفُوا فِي الدُّلُوكِ: رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: الدُّلُوكُ هُوَ الْغُرُوبُ وَهُوَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَالضَّحَاكِ وَالسُّدِّيِّ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَابْنُ عُمَرَ وَجَابِرٌ: هُوَ زَوَالُ الشَّمْسِ وَهُوَ قَوْلُ عَطَاءٍ وَقَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَأَكْثَرِ التَّابِعِينَ. وَمَعْنَى اللَّفْظِ يَجْمَعُهُمَا لِأَنَّ أَصْلَ الدُّلُوكِ الْمَيْلُ وَالشَّمْسُ تَمِيلُ إِذَا زَالَتْ وَإِذا غَرَبَتْ مالت كذلك.

وَالْحَمْلُ عَلَى الزَّوَالِ أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ لِكَثْرَةِ الْقَائِلِينَ بِهِ، وَلِأَنَّا إِذَا حَمَلْنَاهُ عَلَيْهِ كَانَتِ الْآيَةُ جَامِعَةً لِمَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ كُلِّهَا "فَدُلُوكُ الشَّمْسِ": يَتَنَاوَلُ صَلَاةَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَ"إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ": يَتَنَاوَلُ الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَ"قُرْآنَ الْفَجْرِ": هُوَ صَلَاةُ الصُّبْحِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾، أَيْ: ظُهُورِ ظُلْمَتِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُدُوُّ اللَّيْلِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: غُرُوبُ الشَّمْسِ.

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾، يَعْنِي: صَلَاةَ الْفَجْرِ، سَمَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ قُرْآنًا لِطول القراءة فيها. وَانْتِصَابُ الْقُرْآنِ مِنْ وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَطْفٌ عَلَى الصَّلَاةِ أَيْ: وَأَقِمْ قُرْآنَ الْفَجْرِ، قَالَهُ الْفَرَّاءُ، وَالثاني: قَالَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ: عَلَى الْإِغْرَاءِ أَيْ وَعَلَيْكَ قُرْآنَ الْفَجْرِ.

الأَمْرُ بالصَّلاةِ كعِلاج روحيّ وسِلاح لِمواجهة الْمَكْرِ، وهذا من أدلة أنّ سورة الإسراء نزلت بعد قصة الإسراء والمعراج، حيث اشتدت مواجهة المشركين ومكرهم وكيدهم، وحيث كلّف النبي صلى الله عليه وسلم بخمسين صلاة في المعراج ثم خففت

1 -انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص. 689)

إلى خمس، فنودي: هي خمس وهي خمسون، قد أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي[1].

إشراقة بلاغية: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تَشْهَدُهُ ملائِكَةُ اللَّيْلِ والنَّهار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهارِ ويجتمعون في صلاةِ العصرِ وصلاةِ الفجرِ، ثمَّ يعرُجُ الَّذين باتوا فيكم فيسألُهم وهو أعلمُ بهم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم وهم يُصلُّون وأتيناهم وهم يُصلُّون[2].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تَفْضُلُ صلاةُ الجمع صلاةَ أحدِكم وحدَهُ بخمْسٍ وعشرينَ جزءًا، وتَجْتَمِعُ ملائِكَةُ الليلِ وملائِكَةُ النَّهارِ في صلاةِ الفَجْرِ[3].

*﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ التهجد لا يكون إلاّ بعد النوم، يقال تهجد: إذا قام بعدما نام، وهجد: إذا نام، والمقصود قيام الليل للصلاة.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ : زيادة لك، فضيلة زائدة، و﴿عسى أن يبعثك ربك مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: وقيل: إن قيام الليل و نّافِلَةُ الليل كان فريضة عليه زيادةُ خُصوصِيّةٍ لِلرَّسولِ ﷺ،

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: قامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى تَورَّمَت قدَماه، فقيلَ له: غَفَرَ اللهُ لكَ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تَأخَّرَ، قال: أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا [4].

والمَقامُ المَحْمودُ: هو مقام الشَّفاعَةُ العُظْمى التي يَحْمَدُهُ عليها الأَوَّلونَ والآخِرون.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا سَمِعتُمُ المُؤَذِّنَ فقولوا مِثلَ ما يقولُ ثُمَّ صَلُّوا عليَّ؛ فإنَّه مَن صَلَّى عليَّ صَلاةً صَلَّى

1 - أخرجه النسائي (447) واللفظ له، وأخرجه البخاري (3207)، ومسلم (164) باختلاف يسير.
2 - أخرجه البخاري (7486) واللفظ له، ومسلم(632)
3 - أخرجه البخاري (7486) واللفظ له، ومسلم(632)
4 - أخرجه البخاري (468)، ومسلم(649) باختلاف يسير.

اللهُ عليه بها عَشرًا، ثُمَّ سَلوا اللهَ ليَ الوسيلةَ؛ فإنَّها مَنزِلةٌ في الجَنَّةِ، لا تَنبَغي إلَّا لعَبدٍ مِن عِبادِ اللهِ، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سَألَ لي الوسيلةَ حَلَّت له الشَّفاعةُ [1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن قال حينَ يسمعُ النِّداءَ: اللَّهمَّ ربَّ هذه الدعوةِ التَّامةِ، والصَّلاةِ القائمةِ آتِ محمَّدًا الوسيلةَ والفَضيلةَ، وابعثه مقامًا محمودًا الَّذي وعدته إلَّا حلَّت لهُ الشَّفاعةُ يومَ القيامةِ [2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي، فهي نائلةٌ من مات منهم لا يشركُ باللهِ شيئًا[3].

*﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِيهِ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحُسْنُ وَقَتَادَةُ: "أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ": الْمَدِينَةَ. "وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ": مَكَّةَ، نَزَلَتْ حِينَ أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ، روي في ذلك حديث ضعيف:

عن ابن عباس رضي الله عنه: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ ثم أُمِرَ بالهِجرَةِ وأنزَل اللهُ {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [4].

وَقَالَ الضَّحَاكُ: "وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ": مِنْ مَكَّةَ آمِنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ "وَأَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ": مَكَّةَ ظَاهِرًا عَلَيْهَا بِالْفَتْحِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَدْخِلْنِي فِي أَمْرِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَنِي بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ مُدْخَلَ صِدْقٍ الْجَنَّةَ وَأَخْرِجْنِي مِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ قُمْتُ بِمَا وَجَبَ عَلَيَّ مِنْ حَقِّهَا مُخْرَجَ صِدْقٍ.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: "أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ": الْجَنَّةَ "وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ": مِنْ مَكَّةَ.

---

1 - أخرجه مسلم(384) من أفراد مسلم على البخاري.

2 - أخرجه البخاري(614)

3 - أخرجه البخاري (6304)، وأحمد (8959) مختصراً، ومسلم (199)، والترمذي (3602)، وابن ماجه (4307) واللفظ له

4 - أخرجه الترمذي (3139) واللفظ له، وأحمد(1948) ، فيه قابوس بن أبي ظبيان، ضعيف.

وَوَصَفَ الْإِدْخَالَ وَالْإِخْرَاجَ بالصدق لما يؤول إِلَيْهِ الْخُرُوجُ وَالدُّخُولُ مِنَ النَّصْرِ وَالْعِزِّ وَدَوْلَةِ الدِّينِ كَمَا وَصَفَ الْقَدَمَ بِالصِّدْقِ فَقَالَ: "أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ" [يُونُسَ:2].

﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ وَقَالَ الْحَسَنُ: مُلْكًا قَوِيًّا تَنْصُرُنِي بِهِ عَلَى مَنْ نَاوَأَنِي، وَعِزًّا ظَاهِرًا أُقِيمُ بِهِ دِينَكَ. فَوَعَدَهُ اللَّهُ لَيَنْزِعَنَّ مُلْكَ فَارِسٍ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمَا فَيَجْعَلُهُ لَهُ.

قَالَ قَتَادَةُ: عَلِمَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ [نَصِيرٍ] فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا: كِتَابَ اللَّهِ وَحُدُودَهُ وَإِقَامَةَ دِينِهِ.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، (الحق) يَعْنِي: الْقُرْآنَ {وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} أَيِ: الشَّيْطَانُ، قَالَه قَتَادَةُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: "الْحَقُّ": الْإِسْلَامُ وَ"الْبَاطِلُ": الشِّرْكُ وَقِيلَ: "الْحَقُّ": عِبَادَةُ اللَّهِ وَ"الْبَاطِلُ": عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ذَاهِبًا، يُقَالُ: زَهَقَتْ نَفْسُهُ أَيْ خَرَجَتْ.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثُمائة نُصُبٍ، فجعل يَطعُنُها بِعُودٍ في يده، ويقول» :جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد[1].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، قِيلَ: "مِنْ" لَيْسَ لِلتَّبْعِيضِ وَمَعْنَاهُ: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا كُلُّهُ شِفَاءٌ أَيْ: بَيَانٌ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ يُتَبَيَّنُ بِهِ الْمُخْتَلَفُ وَيَتَّضِحُ بِهِ الْمُشْكِلُ وَيُسْتَشْفَى بِهِ مِنَ الشُّبْهَةِ وَيُهْتَدَى بِهِ مِنَ الْحَيْرَةِ فَهُوَ شِفَاءُ الْقُلُوبِ بِزَوَالِ الْجَهْلِ عَنْهَا وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، لِأَنَّ الظَّالِمَ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَالْمُؤْمِنَ مَنْ يَنْتَفِعُ بِهِ فَيَكُونُ رَحْمَةً لَهُ.

وَقِيلَ: زِيَادَةُ الْخَسَارَةِ لِلظَّالِمِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ كُلَّ آيَةٍ تَنْزِلُ يَتَجَدَّدُ مِنْهُمْ تَكْذِيبٌ وَيَزْدَادُ لَهُمْ خَسَارَةٌ.

قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يُجَالِسْ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ قَضَى اللَّهُ الَّذِي قَضَى شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [2].

*﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ التشخيص النفسي (ابن القيم): تَصْويرٌ لِطَبيعةِ الإنسانِ الخاليةِ مِن الإيمان؛ البَطَرُ

1 - متفق عليه: أخرجه البخاري (4287)، ومسلم(1781) .

2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص693).

والتَّكَبُّرُ عِنْدَ الرَّخاءِ ﴿نَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ (لِوِي العَطِفِ والكِبْر)، والإنْكِسارُ والقُنوطُ عِنْدَ الشِّدَّةِ ﴿وإذا مسه الشر كان يوَئُوسًا﴾.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾: ﴿شَاكِلَتِهِ﴾ أي سَجِيَّتِهِ، ومَذْهَبِهِ، وطَبيعتِهِ التي صاغَها بِاخْتِيارِه؛ الآيَةُ فيها تَحْذيرٌ وتأْطيرٌ لِمَبْدَأِ المَسْؤوليّةِ الفَرْديّة.

*﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾،

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: بينا أنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في حرْثٍ وهو مُتَّكئٌ على عَسِيبٍ إذ مر اليهودُ فقال بعضُهم لبعضٍ: سلوه عن الروحِ، فقال: ما رابَكُم إليه؟ لا يَستقبلنَكُم بشيءٍ تَكرَهونَه. قالوا: سلوه، فسألوه عن الروحِ، فأمسك النبيُّ صلى الله عليه وسلم فلم يَرُدَّ عليهم شيئًا، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمتُ مقامي فلما نزل الوحيُ قال: ﴿يسألونك عن الروح﴾ [1].

قال البغوي – رحمه الله -: وَاخْتَلَفُوا فِي الرُّوحِ الَّذِي وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْهُ، فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ جِبْرِيلُ، وَهُوَ قَوْلُ الحسن وقتادة، رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ: مَلَكٌ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ وَجْهٍ لِكُلِّ وَجْهٍ سَبْعُونَ أَلْفَ لِسَانٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى بِكُلِّهَا.

وَأُولَى الْأَقَاوِيلِ: أَنْ يُوكَلَ عِلْمُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى الرُّوحِ مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا [2].

يلاحظ الرد بإيجازٌ بَديعٌ في رَدِّ التَّعَنُّتِ المَعْرِفِيّ؛ وفي قَوْلِهِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كَسْرٌ لِغُرورِ العَقْلِ البَشَرِيّ مهما بَلَغ.

*﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا، إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

عَن حُذيفةَ رَضِيَ الله عَنه قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَدرُسُ الإسلامَ كما يَدرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ حَتَّى لا يُدرى ما صيامٌ ولا صَلاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صَدَقةٌ، ويُسرَى على كِتابِ اللهِ في لَيلةٍ فلا يَبقى في الأرضِ مِنه آيةٌ، وتَبَقَى طَوائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيخُ الكَبيرُ والعَجوزُ يَقولونَ: أدرَكْنا آباءَنا على هَذِه الكَلِمةِ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فنَحنُ نَقولُها. فقال لَه صِلةُ: ما تُغني عَنهم لا إلَه إلَّا اللهُ وهم لا يَدرونَ ما صَلاةٌ ولا صيامٌ

1 - أخرجه البخاري (4721)، ومسلم (2794) باختلاف يسير
2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (694).

ولا نُسُكٌ ولا صَدَقةٌ؟ فأعرَضَ عَنه حُذَيفةُ، ثُمَّ رَدَّها عليه ثَلاثًا، كُلُّ ذلك يُعرِضُ عَنه حُذَيفةُ، ثُمَّ أقبَلَ عليه في الثَّالِثةِ فقال: يا صِلةُ، تُنْجيهم مِنَ النَّارِ، ثَلاثًا [1].

إشراقة بلاغية: التَّذْكيرُ بالمِنَّةِ؛ كَما أنَّ الرُّوحَ سِرٌّ إلهِيّ، فالوَحْيُ فَضْلٌ مَشِيئِيٌّ يُمْكِنُ سَلْبُهُ، والتَّثْبيتُ عليهِ رَحْمَةٌ كُبْرى.

*﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، التحدي والإعجاز: آيَةُ التَّحَدِّي العُظْمى بالقرآنِ على الإطلاق؛ شُمولُ الجِنِّ والإنْسِ والتَّظافُرِ ﴿ظَهِيرًا﴾ يُؤَكِّدُ اسْتِحالَةَ المُعارَضَةِ في النَّظْمِ والمَعْنى والبَلاغَة.

*﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، ﴿صَرَّفْنَا﴾: تَنْويعُ الأسَاليبِ والمَثَلِ لِتَقْريبِ الحَقّ، والنتيجةُ عِنادُ الكافِرين.

*﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

الأسلوب الماكر ومطالب التعنت: سَرْدُ ستّةِ شُروطٍ مُتَعَنِّتَةٍ (التَّفْجيرُ، الجَنَّاتُ، إسْقاطُ السَّماءِ كِسَفاً، الإتْيانُ باللهِ والملائِكَةِ قَبيلاً، بيتُ الزُّخْرُفِ، الرُّقِيُّ في السَّماءِ وتَنْزيلُ كِتابٍ مَقْروء).

التنزيه والرد النبوي: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ردٌّ يُعِيدُ النُّبُوءةَ إلى إطارِها الصحيح: الرَّسولُ هادٍ ومُبَلِّغٌ، وليسَ ساحِراً ولا إلهاً يَمْلِكُ المَشيئَةَ الخارِقَةَ الإقْتِراحِيّة.

*﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّماءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾، الشبهة والجواب، يبين البقاعي وابن عاشور – رحمهما الله: الشُّبْهَةُ الإسْتِنْكارِيّة: كَيْفَ يَكونُ الرَّسولُ بَشَراً؟

القانون الإلهي: الجنسِيّةُ المُتَطابِقَة بينَ الرَّسولِ والمرْسَلِ إليهِم ضَرورَةٌ لِلتَّمَكُّنِ من الإبْلاغِ والقُدْوَةِ؛ فَلَوْ كانَ أهْلُ الأَرْضِ ملائِكَةً لَكانَ الرَّسولُ مَلَكاً.

---

1 - أخرجه ابن ماجه (4049) واللَّفظُ له، والحاكم (8460)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (2028). صحَّحه الحاكم وقال: على شرط مسلم، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4049)، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (303)، وصحَّح إسنادَه البوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) (94/4)، وشعيب الأرناؤوط على شرط مسلم في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (321/12)، وقوَّاه ابن حجر في ((فتح الباري)) (19/13)، وجوده ابن باز في ((الفوائد العلمية)) (569/2).

*﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، التسلية والإشهاد: الحَكَمُ هُوَ اللهُ العَليمُ بالبَصائِر.

الحشر والمصير: تَصْويرٌ مَشْهَدِيٌّ مُرْعِبٌ لِحَشْرِ المُسْتَكْبِرينَ ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ جزاءً وِفاقاً لِعَماهُمْ وصَمَمِهِم عَنِ الحقِّ في الدُّنيا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رَجُلًا قال: يا نَبيَّ اللهِ، كيفَ يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه؟ قال: أليسَ الذي أمشاه على الرِّجلَينِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشيَه على وجهِه يومَ القيامةِ؟ قال قَتادةُ: بَلى وعِزَّةِ رَبِّنا [1].

*﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

فأجابهم الله:

*﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا﴾

الاستدلال العطفي: الاِسْتِدْلالُ بِخَلْقِ الأَكْبَرِ (السَّماوات والأَرْض) على الأَصْغَرِ (إعادَة بَعْثِ الإنسان)، وهو مِن أَقْوى البَراهينِ العَقْلِيّةِ التي كثيراً ما يكررها القرآن مع تنوع الأسلوب.

*﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾

لو مَلَكَ الإنسانُ خَزائِنَ الرَّحْمَةِ التي لا تَفْنى، لَمَنَعَهُ الشُّحُّ والجَشَعُ الخَوْفِيُّ مِن الإنْفاقِ؛ ﴿قَتُورًا﴾ ضَيِّقَ النَّفْسِ بَخيلاً بالطبْعِ، لِيُبَيِّنَ التَّباينَ الشاسِعَ بَيْنَ جودِ اللهِ المُمْتَدِّ وضيقِ الشُّحِّ البَشَرِيّ.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا(104) وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (106) قُلْ

1 - أخرجه البخاري (6523)، ومسلم (2806) بلفظه، وأحمد (12708)، وابن حبان (7323) كلاهما باختلاف يسير.

آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (109) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا(111) .

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس المبارك ختام سورة الإسراء؛ وهي خاتمةٌ تتنزل كالفصل الحاسم بين منهجين: منهج الطغيان والاستكبار المتمثل في تجربة فرعون مع موسى عليه السلام، ومنهج العبودية والتسليم والخشوع المتمثل في أهل العلم وأتباع الوحي، حيث تتضافر في هذه الآيات البلاغة واللغة والسياق والأسلوب للتأكيد على ثبات الحق وهوان الباطل.

التحدي ومواجهة الفرعونية: *﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

إشراقة بلاغية: افتتاح بـ (اللام وقد) المقتضيتين للتحقيق والتأكيد، لربط أول السورة بخاتمتها؛ فكما أسرى بالنبي ﷺ وآتاه القرآن، فقد أيد موسى بالبيّنات.

الآيات التسع هي المعجزات الظاهرة (العصا، اليد، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، السنون، ونقص الثمرات).

قوله ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إذ جاءهم﴾ أي: جاءهم موسى، يُشير البقاعي إلى أنه خطاب للنبي ﷺ على سبيل التقرير والشهادة الميدانية على صدقه؛ لأن أهل الكتاب يعلمون ذلك.

وقال البغوي: يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غير، ويجوز أن يكون خاطبه عليه السلام وأمره بسؤالهم ليتبين كذبهم على قومهم.

ثم يبرز الطغيان البشري في قول فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾؛ حيث يلجأ المستكبر عندما تُعجزه الحجة إلى رمي الداعية بالجنون أو السحر كي يصرف عقول الناس عن جوهر الرسالة.

قوة الحق واليقين: *﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ...﴾

قراءة الجمهور (عَلِمْتَ) بفتح التاء للخطاب، وهي مواجهة حاسمة من موسى لفرعون لكشف زيف جحوده؛ أي إنك موقن في باطنك بأنها من الله، لكنك تستكبر (كما في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾).

دلالة اللفظ: ﴿بَصَائِرَ﴾ جمع بصيرة، وهي النور الذي يُبصر به القلب، وجُعلت المعجزات ذاتها بصائر للمبالغة؛ كأنها عين البصيرة.

المقابلة الأسلوبية: كافأ موسى ظن فرعون الخاطئ ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ... مَسْحُورًا﴾ بظن حقيقي ومتحقق: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾؛ و"المثبور" قال ابن عباس: ملعونا، وقال مجاهد: هالكاً، وقال قتادة: مهلكاً، وقال الفراء: مصروفاً ممنوعاً من الخير.

سنّة الاستئصال: *﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾

التعبير اللغوي: ﴿يَسْتَفِزَّهُم﴾ الاستفزاز هو الإزعاج الخفيف الحثيث للإخراج؛ أراد فرعون اقتلاع موسى وقومه وخردقتهم من أرض مصر بالتشريد أو القتل.

الالتفات والسرعة: تعقيب الفعل بالفاء ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ﴾ يفيد الفورية والإطباق؛ حيث انقلب مكر فرعون عليه، فبدلًا من أن يُخرجهم من الأرض، أخرجه الله منها بالهلاك.

يرى محمد قطب – رحمه الله أنّ هذه الآية تؤكد سنّة تاريخية؛ الطغيان حين يصل إلى مرحلة محاولة محو الحق وتشريد أهله، تتدخل القدرة الإلهية المباشرة لحسم المعركة.

استخلاف المستضعفين ووعد الآخرة: *﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ قال البغوي: أي: أرض مصر والشام.

﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ قيل: مجيء عيسى من السماء، وقيل: ترجع لقوله في أول السورة (لتفسدنّ في الأرض مرتين).

وقوله سبحانه ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ اللفيف: المخلوط الملتف بعضه ببعض من أشتات مختلفة. ينوه ابن عاشور إلى أن التعبير يجسد مشهد حشر البشر يوم القيامة جميعًا متداخلين، أو جمعهم في آخر الزمان من أشتات الأرض.

وقيل: هي دولة يهود الأخيرة حيث اجتمعت يهود والصهاينة من أشتات الأرض.

طبيعة القرآن والرسالة: *﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيراً، وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ زنزلناه تنزيلاً﴾

التكرار البلاغي: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ الأول يتعلق بالمصدر والغاية (حُفظ من التبديل ونزل بالعدل)، والثاني يتعلق بالجوهر والمحتوى (نزل مشتملًا على الحق والصدق).

الأدب القرآني، فسّر ابن تيمية وابن القيم قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على مهل وتؤدة وتنجم، ليتشربه العقل ويثبت في القلوب؛ فالقرآن ليس مجرد معلومات تُلقى، بل هو منهج ترتبي يُبني عليه السلوك وتُزكى به النفوس شيئًا فشيئًا.

مشهد الخشوع المطلق ومقابلة الاستكبار: *﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا﴾

الأسلوب والإعجاز: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ صيغة أمر معناها التخيير للإعراض عنهم والتسفيه لكفرهم؛ فالله غني عن إيمانهم.

ينقلنا النص من كبرياء فرعون ومشركي مكة إلى مشهد مهيب لأهل العلم الصادقين: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾؛ التعبير بـ "يخرون" يفيد التهاوي السريع الذي لا يملكه المرء من شدة التأثر، وخص "الأذقان" لأنها أقرب جزء في الوجه للأرض عند الانحناء.

التكرار والتدرج: تكررت ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ في الآية لتقترن بالدموع ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾؛ فالأولى خشوع الجسد بالجوارح، والثانية خشوع الروح والمشاعر وانسكاب العبرات.

عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عَينانِ لا تمَسَّهما النَّارُ: عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل اللهِ [1]..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكَى من خَشيَةِ اللهِ حتى يعودَ اللبَنُ في الضَّرْع ، ولا يجتَمِعُ غُبَارٌ في سبيلِ اللهِ ودُخَانُ جهنَّمَ[2]..

التوحيد والاعتدال في العبادة: *﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ...﴾

سبب النزول والسياق: سببها ردٌّ على المشركين الذين أنكروا اسم "الرحمن".

التوجيه الأسلوبي: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ منهج الوسطية؛ لا جهر يُزعج المشركين فيسبوا القرآن، ولا مخافتة تُسقط سماع الأمة والتأثر به، بل هو صراط بينهما.

---

1 - خرجه الترمذي (1639)،و البيهقي في ((شعب الإيمان)) (775)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (146)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (5/ 209) باختلاف يسير. وإسناده حسن كما في الدرر السنية.

2 - خرجه الترمذي (3211)، والنسائي (3108)، وأحمد (10560)، والطيالسي (2565) واللفظ لهم، وسنده حسن صحيح كما في الدرر السنية.

عَن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: (أُنزِلَ ذلك في الدُّعاءِ)، قال في الدرر السنية: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا صلَّى بأصحابِه رفَعَ صَوتَه بالقُرآنِ، فإذا سَمِعَه المشرِكونَ سَبُّوا القرآنَ ومَن أنزَلَه، فأنزَلَ اللهُ تعالَى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، وهذا معنَى قولِ أُمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها في هذا الحديثِ: «أُنزِلَ ذلكَ في الدُّعاءِ»، ومَقصودُها بالدُّعاءِ: الصَّلاةُ؛ لأنَّ الصَّلاةَ في اللُّغةِ هي الدُّعاءُ، أو لأنَّ الدُّعاءَ جزءٌ مِنَ الصَّلاة [1]،.

مسك الختام والتعظيم المطهر: *﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضلُ الذِّكْرِ: لا إله إلا اللهُ، وأفضلُ الدعاءِ: الحمدُ للهِ[2]،

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أَحَبُّ الكلامِ إلى اللهِ أربعٌ : (سبحان اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ)، لا يضرُّك بأيِّهنَّ بدأتَ. وهنَّ من القرآنِ[3].

التراكيب والسلب البلاغي: تنزيهٌ ثلاثي كامل الشمول: نفي الولد (نفي الحاجة للتركيب والتناسل)، ونفي الشريك (نفي الحاجة للمعين في الملك)، ونفي الولي من الذل (نفي الحاجة للناصر عند الضعف).

الختام الشامخ: تختتم السورة الكريمة بالأمر بالتكبير المطرد ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ ليتناسق الختام مع الافتتاحية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾؛ فبدأت بالتنزيه والتقديس، وانتهت بالحمد والتعظيم والتكبير.

*

سورة الكهف

تسمية السورة

(**سورة الكهف**): وهو الاسم الأشهر والأكثر تداولاً، والثابت في السنة النبوية والمصاحف العثمانية، وقد يطلق عليها أحيانا سورة أصحاب الكهف.

---

1 - أخرجه البخاري (4723)، ومسلم (447)، وأبو داود (في مسند عائشة). وانظر البغوي: تهذيت تفسير البغوي (معالم التنزيل (ص700).

2 - أخرجه الترمذي (3383)، وابن ماجه (3800)، والنسائي في ((السنن الكبرى)، (10667) ، حسن الألباني إسناده في هداية الرواة (2246).

3 - أخرجه مسلم (2137) باختلاف يسير، وهذا لفظ صحيح الترغيب والترهيب (1546).

وهي سورة **مكية** بالاتفاق في المشهور بين المفسرين، وقد صح وثبت الخلاف بين علماء العدّ في عدد آياتها؛ فهي بالعد الكوفي 110 آية، وبالعد لبصري 111 آية، وبالعد المدني 105 آية، وبالعد الشامي 106 آية، وإنما ينحصر الخلاف في عد بعض الفواصل آيات، أو حسابها مع غيرها.

سبب النزول

عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّ مُشْرِكِي قريشٍ بعثوا النَّضْرَ بنَ الحارثِ ، وعقْبَةَ بنَ أبي مُعَيْطٍ إلى أحبَارِ اليهودِ بالمدينةِ فقالوا لهُمْ : سَلُوهُمْ عن أَمْرِهِ وأَخْبِروهم خَبَرَهُ وصِفُوا لهم مَقَالَتَه، فإنهم أهلُ الكتابِ الأولِّ، وعندَهُمْ علْمٌ ما ليسَ عندنَا من علمِ الأنبياءِ، فقَدِمَا المدينةَ فسألا أحبارَ اليهودِ عنهُ، وأخبرُوهم بمَا يقولُ، فقالوا لهُم: سَلُوهُ عن ثلاثٍ فإنْ أخْبَرَكُم بهنَّ فهوَ نبيٌّ مرسَلٌ، وإلاّ فهوَ رجلٌ مُتَقَوّلٌ، سلُوهُ عن فِتْيَةٍ ذهبوا في الدهْرِ الأوَّلِ ما كانَ من أمرِهِم؟ فإنَّهُم كانَ لهمْ حديثٌ عجِيبٌ، وسلُوهُ عن رجلٍ طوَّافٍ طافَ مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها ما كان نَبَؤُهُ؟ وسلُوهُ عن الرُّوح ماهُوَ؟ فانْطَلَقَا فقَدِمَا مكةَ فقالا: يا معشَرَ قريشٍ قدْ جئْنَاكُم بفَصْلٍ ما بينكم وبينَ محمدٍ، أمَرَنَا أحبارُ اليهودِ أنْ نسْأَلَهُ عن ثلاثٍ، فذكَرَ القصَّةَ، فجاءوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسأَلُوهُ عن ذلكَ فقالَ: غدًا أجِيبُكُم ولم يَسْتَثْنِ، فمَكَثَ خمسَ عشرَةَ ليلةً لا يُحْدِثُ اللهُ إليهِ في ذلكَ وحيًا، ولا يأتِيهِ جبريلُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، حتَّى أحْزَنَ ذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وأَرْجَفَ بهِ أهلُ مكةَ، فقالُوا: وعَدَنَا أنْ يجيبَنَا غدًا وقدْ مَضَتْ خمسِ عشرةَ ليلةً، أصبحْنَا منْها اليومَ لا يخبِرُنَا عمَّا سأَلْنَاهُ عنهُ، فنزلَ عليهِ جبريلُ بسورةِ الكهفِ، فعَاتَبَهُ في أوَّلِهَا على حزْنِهِ عليهِمْ ثمَّ أخبَرَهُ بخبَرِ أهلِ الكهفِ، وأخبَرَهُ عن الرجلِ الطوَّافِ، ونزلَ قولُهُ تعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} الآيةَ [1].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قالت قُرَيْشٌ لِيَهودَ: أعطونا شيئًا نسألُ هذا الرَّجلَ. فقالوا: سلوهُ عنِ الرُّوح. فأنزلَ اللَّهُ تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوح قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا، التَّوراةَ، ومَن أوتيَ التَّوراةَ فقد أوتيَ خيرًا كثيرًا. فأنزلَ اللَّهُ تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي) إلى آخرِ الآيةِ [2]..

كما جاء في فضل السورة:

---

1 - أخرجه الترمذي (3140)، وأحمد (2309) مختصرا، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (2/ 269) باختلاف يسير، وأعله ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر الخبر بأن فيه راو مبهم لولاه لكان حسناً.

2 - أخرجه الترمذي (3140)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11314)، وأحمد (2309) باختلاف يسير، وصحح ابن دقيق العيد إسناده.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن قرأ العَشْرَ الأواخِرَ من (سورةِ الكَهْفِ) عُصِمَ من فتنةِ الدَّجَّالِ [1].

عَنِ النَّواسِ بن سَمعانَ رَضيَ الله عَنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عَنِ الدَّجَّالِ: ((فمَن أَدْرَكَهُ مِنكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عليه فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ [2].

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: كان رَجُلٌ يَقرَأُ سورةَ الكَهفِ وعِندَه فرَسٌ مَربوطٌ بشَطَنَينِ، فتَغَشَّتْه سَحابةٌ فجَعَلَت تَدورُ وتَدنو، وجَعَلَ فرَسُه يَنفِرُ منها، فلَمَّا أصبَحَ أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذَكَرَ ذلك له، فقال: تلك السَّكينةُ تَنَزَّلَت للقُرآنِ [3].

وقد وردت عدة أحاديث في فضل قراءة سورة الكهف يوم الجمعة منها: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين [4].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق[5].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغفر له ما بين الجمعتين [6].

والنور المذكور في النصوص السابقة قد يكون نوراً معنوياً، والمعنى أن من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة كان ذلك مانعاً له من المعاصي هادياً إلى الصواب ما بين الجمعتين، كما أن النور يستضاء به، وقد يكون نوراً حسياً بمعنى أنه يسطع له نور من تحت قدمه بحيث يكون ظاهراً على وجهه يوم القيامة، وفي الدنيا يكون على وجهه أيضاً نور وبهاء، والقول الثاني أقرب لموافقته لحديث ابن عمر.
فائدة: الفضل المذكور من النصوص السابقة يحصل كذلك لمن قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، قال المناوي في فيض القدير: فيندب قراءتها يوم الجمعة وكذا ليلتها كما نص

---

1 - أخرجه مسلم (795)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10786) واللفظ له، وأحمد(27516)
2 - أخرجه مسلم (2937) مُطَولًا.
3 - أخرجه مسلم (2937) وهذا لفظه، والبخاري (3614)، والترمذي (2885)، وأحمد (18591) جميعهم باختلاف يسير.
4 - أخرجه الحاكم والبيهقي وصححه الألباني.
5 - رواه البيهقي والحاكم وصححه الألباني.
6 - أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب، وقال :رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره بإسناد لا بأس به.

عليه الشافعي رضي الله عنه، وقال رحمه الله: قال الحافظ ابن حجر في أماليه كذا وقع في روايات يوم الجمعة وفي روايات ليلة الجمعة، ويجمع بأن المراد: اليوم بليلته، والليلة بيومها .انتهى. [1].

وقيل من قرأها في جمعة أي من قرأها في أسبوع، فقد تأتي كلمة جمعة بمعنى أسبوع، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا(4) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا(15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (16) ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا(20))

هذه ديباجة سورة الكهف مطلع قرآني مهيب يربط بين نعم الوحي الحق، وحقيقة الدار الدنيا، ومطلع قصة أصحاب الكهف.

1 - وانظر موقع إسلام ويب.

*﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾، إشراقة بلاغية: افتتحت السورة بـ الْحَمْدُ بالتعريف الاستغراقي لكل محامد الكون لله. وفي تقديم إسناد العبودية عَلَىٰ عَبْدِهِ شرف وتشريف للمصطفى ﷺ.

أثنى الله سبحانه على نفسه بإنعامه على خلقه، وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر؛ لإن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص، وعلى سائر الناس على العموم [1]..

وعن الأسودِ بنِ سريع وكان شاعرًا أنه قال يا رسولَ اللهِ ألا أنشُدُك محامدَ حمَدتُ بها ربّي قال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أما إنَّ ربَّك يحبُّ الحمدَ وما استزادَه على ذلك شيئًا [2].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: فإذا قالَ: {الحمدُ للهِ ربِّ العالمين} قالَ اللهُ: حمِدني عبدي [3].

نفي عِوَجًا ينفي أدنى ميل أو ميلان عن الحق. وفي التقديم والـتأخير بين نفي العوج وإثبات الاستقامة في الآية التالية نكتة بلاغية دقيقة لإبراز الكمال الذاتي للقرآن أولاً.

ومن لطائف التفسير: يرى ابن القيم والبقاعي – رحهما الله - أنّ الملاءمة بين "أنزل الكتاب" ونفي "العوج" تعني حفظ العقل والروح من الانحراف، فالوحي هو الميزان المستقيم وسط اعوجاج الأهواء.

*﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾

إشراقة بلاغية: قَيِّمًا حال مؤكدة أو بدل؛ أي مستقيماً في ذاته ومُقيماً لغيره ومصلحاً لشؤون الحياة. تقديم الإنذار على البشارة لتطهير القلوب أولاً من الطغيان والشرك، والقاعدة: أنّ التخلية قبل التحلية.

جاءت (بَأْسًا) نكرة للتكثير والتجهيل استعظاماً لعذابه، وأضيفت إلى مِّن لَّدُنْهُ لإفادة العظمة والهيبة.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص701).
2 - أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (1/ 282) (821) بلفظه، وأحمد (15586)، وابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (1159) باختلاف يسير، قال الطحاوي في شرح معاني الآثار (ج4/ص298) جاءت الآثار متواترة بذلك.
3 - أخرجه مسلم (395)، وأبو داود (821)، والنسائي (909) بلفظه تامًا.

ومن لطائف التفسير: يشير ابن عاشور وسيد قطب – رحمهما الله - إلى أنّ ارتباط الإيمان بـ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ يُقرّر منهج الإسلام: الإيمان حركة وعمل واقعي ملموس وليس مجرد أمانيّ وسكون.

*﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾، إشراقة بلاغية: إيجاز بالحذف، واستعمال اسم الفاعل مَّاكِثِينَ لإفادة الثبوت والاستقرار والخلود السرمدي في هذا "الأجر الحسن" (الجنة).

ومن اللطائف: نفي للزوال والملل؛ فنعم الدنيا ينغصها الزوال، ونعيم الآخرة كامله في الأبدية.

*﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، إشراقة بلاغية: تخصيص بعد تعميم؛ خص إنذار من ادعوا للرحمن ولداً بعد الإنذار العام لشناعة مقالتهم وعظم خطئهم في جانب التوحيد.

الفعل (قَالُوا) يحيل الجريمة إلى القول والافتراء اللساني المخالف لفطرة العقل والوجود.

*﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

إشراقة بلاغية: (مِّن عِلْمٍ) استغراق لنفي أي شبهة علم. وقوله (تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) تجسيد للتفاهة والجرأة؛ فهي مجرد ألسنة تفوهت بجهل دون تفكر ولا دليل. تمييز (كَلِمَةً) ينصب على التهويل.

يستحضر محمد قطب – رحمه الله - هنا خطر "الكلمة" وخطورة التلقي والتقليد للآباء بدون حجة علمية، وكيف تصبح الأباطيل موروثات تتداولها الأجيال.

*﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، إشراقة بلاغية: صورة بيانية بليغة؛ بَاخِعٌ (قاتل وناحر نفسك غمّاً). و(عَلَىٰ آثَارِهِمْ) هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة تمثيلية لمن يتولى ويولي مدبراً، فيتبعه المشتاق بصرَه وتلفظ أنفاسه حزناً.

تعكس هذه - ومثلها آيات في سور أخرى - شفقة النبي ﷺ ورحمته بالبشرية، حتى كاد الحزن يقتله لإعراضهم، فتتجه الآية لتسلية قلبه وتحديد مسؤوليته بالبلاغ لا بالتحويل القسري.

من ذلك ما جاء في سورة التوبة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128].

*﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، إشراقة بلاغية: التعبير بـ (زِينَةً) فيه تنبيه لكونها ممتلكات ظاهرة ومتاعاً عارضاً وليست حقيقة دائمة. عدل عن "أكثر عملاً" إلى قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ للتركيز على الكيف والإخلاص والصواب

وفي حديث جبريل: قال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّك تَراه، فإن لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك [1]..

ولهذا قيل لأبي علي ابن الفُضيل بن عياض: يا أبا علي، ما معنى أحسن العمل؟ قال: "أخلصه وأصوبه"، قيل: ما أخلصه؟ وما أصوبه؟ قال: «إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإن كان صوابًا ولم يكن خالصًا فلم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا"، قيل: يا أبا علي، ما هو الخالص الصواب؟ قال: "الخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة."

فالاهتمام بإحسان العمل أعظم وأوْلى من الكثرة، فكون المؤمن يهتم بإخلاص العمل وتنقيته من الرياء وغيره من أنواع الشرك، ويهتم بمُطابقته للشريعة، وألا يكون فيه ابتداعٌ؛ هذا أهم من الكثرة، وإذا صحَّ له هذا فليُكثر من العمل الذي -صحَّ له فيه الإخلاص، وصحَّ له فيه الصدق- أما أن يهتم بالكثرة من غير عنايةٍ بالإخلاص وعنايةٍ بالصدق -يعني: المُتابعة- فهذا لا، يجب أن يكون الاهتمام بالإخلاص والمُتابعة أعظم من الكثرة [2]..

يقول ابن القيم – رحمه الله - "الابتلاء بزينة الأرض امتحان للقلوب هل تتعلق بالمُزيَّن أم بالْمُزيّن؟". الحياة دار اختبار وليست مستقراً.

*﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾، إشراقة بلاغية: مقابلة ومفارقة مشهدية جليلة مع الآية السابقة؛ من أرض مزينة إلى صَعِيدًا جُرُزًا (تراباً يابساً لا نبات فيه ولا حياة).

مؤكدة بـ (إنّ واللام) للتنبيه على حتمية الفناء والخراب لهذه الزينة، فلا يغترنّ بها عاقل.

*﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، قال البغوي – رحمه الله -: والكهف: هُوَ الْغَارُ فِي الْجَبَلِ، وَاخْتَلَفُوا فِي الرَّقِيمِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:

1 - أخرجه البخاري (50) ومسلم (9).
2 - انظر موقع إسلام ويب.

هُوَ لَوْحٌ كُتِبَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَقَصَصُهُمْ وَهَذَا أَظْهَرُ الْأَقَاوِيلِ، ثُمَّ وَضَعُوهُ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ وَكَانَ اللَّوْحُ مِنْ رصاص، وقيل، من حجار[1]..

*﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ استفهام إنكاري تنبيهي؛ المعنى: لا تحسب قصتهم معجزة فريدة لا نظير لها، فخلق السموات والأرض وإحياء الموتى أعجب وأعظم.

*﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

قال ابن كثير رحمه الله: وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَكَانِ هَذَا الْكَهْفِ فِي أَيِّ الْبِلَادِ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ لَنَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ لَأَرْشَدَنَا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ». فَأَعْلَمَنَا تَعَالَى بِصِفَتِهِ وَلَمْ يُعْلِمْنَا بِمَكَانِه [2]..

البلاغة والأسلوب: اختيار لفظ الْفِتْيَةُ (جمع قلة) يدل على التضحية والفتوة والشباب النابض بالإيمان. واللجوء لـ (أَوَى) ينبئ بالفرار للدين والبحث عن المأوى الآمن.

ومن اللطائف: دعا الفتية بالرحمة وطلبوا رَشَدًا؛ يرى ابن عاشور وسيد قطب – رحمهما الله - أنّ انقطاع الأسباب الدنيوية ينقل المؤمن مباشرة إلى طلب الرشد واللطف الإلهي الخاص (من لدنك).

*﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، إشراقة بلاغية: فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ كتاية وبلاغة بديعة عن إلقاء النوم الثقيل المستغرق الذي يمنع سماع الأصوات التي هي أعظم موقظ، وقوله سبحانه: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ التنكير لإفادة الكثرة والامتداد الزمني الطويل.

*﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾، إشراقة بلاغية: هنا ما يسميه البلاغيون: الاستعارة، ففي قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ تشبيه لإيقاظهم من النوم الطويل بالبعث بعد الموت.

ومن اللطائف: التعليل بـ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ علم إظهار وشهادة للعباد يترتب عليه الجزاء، وإظهار قدرة الله في ضبط الأمد والوقت بدقة.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) 702).

2 - انظر ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير(ج2/ص412) دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة 1981.

وذلك أنّ أهل القرية تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف، واختلفوا في قوله تعالى ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾، أي: غاية، وقال مجاهد: عدداً، ونصبه على التفسير[1]..

*﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، إشراقة بلاغية: التعبير بضمير العظمة نَّحْنُ لإضفاء التوثيق المطلق للقصة بعيداً عن أساطير الإسرائيليات.

ومن اللطائف: قاعدة قرآنية تربوية يذكرها ابن تيمية: "من بادر بالإيمان والمبادرة للطاعة زاد الله هداه وتوفيقه" (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى).

*﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالصبر والتثبيت، وقويناهم بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العز وخصب العيش، وفروا بدينهم إلى الله، فآواهم الله إلى الكهف.

إشراقة بلاغية: هنا استعارة مجازية أخرى ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ تُصوّر الثبات والشجاعة وعدم الخوف من القوة الغاشمة.

﴿شَطَطًا﴾، القول الشطط: هو القول الجائر البعيد جداً عن الحق والاعتدال. والقيام في قوله : ﴿إِذْ قَامُوا﴾ يدل على الموقف العلن والصراحة بالحق أمام أهل الباطل.

*﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

إشراقة بلاغية: التعبير بالإشارة ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ فيه تحسّر على الانتماء القومي الذي تلبّس بالشرك. والاستفهام لطلب الدليل ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾... فيه تحكيم للمنطق والعقل الذي يرفض الخرافة.

يبرز محمد قطب – رحمه الله- هنا لطيفة في محاكمة العقل المؤمن للإيدلوجيات الوثنية: الباطل لا يملك سلطاناً ولا برهاناً علمياً، وإنما يقيم وجوده بالافتراء والتكذيب.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) 703)، والنصب على التفسير" هو مصطلح نحوي قديم عند علماء العربية الأوائل (مثل سيبويه والفراء) يُقصد به الاسم المنصوب الذي يفسر ويوضح مبهمًا قبله، وهو ما أُطلق عليه لاحقاً باب "التمييز" أو "المفعول لأجله" أو التفسير الكاشف لإجمال العدد أو الذات.

*﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾

إشراقة بلاغية: الفعل يَنشُرْ فيه سعة وامتداد؛ فالكهف المظلم الضيق يغدو بسعة رحمة الله فضاءً أرحب من الدنيا كلها.

ومن اللطائف: التوازن في أخذ الأسباب؛ لما اعتزلوا الباطل بجوارحهم ودينهم، أوى الله سبحانه أجسادهم للكهف، وجاء الوعد بالرفق والرحمة الإلهية؛ فالعزلة الشعورية والعملية عن الباطل مقدمة النصر واللطف.

وهذا يذكرنا بحديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي: كان أوَّلَ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الرُّؤيا الصَّادِقةُ في النَّومِ، فكان لا يَرى رُؤيا إلَّا جاءَت مِثلَ فلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكان يَلحَقُ بغارِ حِراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيه - قال: والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ- اللَّياليَ ذَواتِ العَدَدِ، قَبلَ أن يَرجِعَ إلى أهلِه ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثُمَّ يَرجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزَوَّدُ بمِثلِها حتَّى فَجِئَه الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءَه المَلَكُ فقال: اقرَأْ[1]. فقد كان صلى الله عليه وسلم يمقت عبادة قريش للأصنام والأوثان.

*﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾

إشراقة بلاغية: رسم مشهدي عجيب وتجسيد حركي بليغ! الآيات الكونية سخرت لحفظهم؛ فالشمس تميل (تَّزَاوَرُ) وتتعداهم وتتركهم (تَّقْرِضُهُمْ).

﴿وهم في فَجْوَةٍ﴾ مكان متسع داخل الكهف ليصلهم الهواء والنسيم دون أن تصيبهم حرارة الشمس الكاوية التي تفسد الأجساد.

يقول ابن القيم – رحمه الله -: من كان مع الله، سخر الله له الكون وقوانينه لحفظه ورعايته ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

*﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾

إشراقة بلاغية: طباق بين أَيْقَاظًا ورُقُودٌ. وصورة الكلب الباسط ذراعيه بالفناء (بِالْوَصِيدِ) إتقان مشهدي عجيب يوحي باليقظة والحراسة.

---

1 - أخرجه البخاري (4953)، ومسلم (160)، وعبد الرزاق (9719)، والبيهقي (17780)، باختلاف يسير.

قال مجاهد والضحاك: الوصيد: فناء الكهف، وقال عطاء: الوصيد: عتبة الباب، ولعل من هذا المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة عليهم أبوابها ومغلقة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال : غزونا مع معاويةَ غزوةَ المصيفِ, فمَرُّوا بالكهفِ الذي فيهِ أصحابُ الكهفِ, الذين ذكر اللهُ في القرآنِ, فقال معاويةُ : لو كُشِفَ لنا عن هؤلاءِ, فنظرنا إليهم, فقال ابنُ عباسٍ : ليس ذلك لك قد منع اللهُ ذلك من هو خيرٌ منك, فقال : { لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا } قال معاويةُ : لا أنتهي حتى أعلمَ علمهم, قال : فبعث ناسًا, فقال : اذهبوا فانظروا فلمَّا دخلوا الكهفَ, بعث اللهُ عليهم ريحًا, فأخرجتهم, فبلغ ذلك ابنُ عباسٍ, فأنشأ يُحدِّثهم عنهم, فقال : إنَّهم كانوا في مملكةِ ملكٍ من هذهِ الجبابرةِ, فجعلوا يعبدونَ حتى عبدةَ الأوثانِ ,قال : وهؤلاءِ الفتيةُ بالمدينةِ, فلمَّا رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينةِ على غيرِ ميعادٍ, فجمعهم اللهُ, عزَّ وجلَّ, على غيرِ ميعادٍ, فجعل بعضهم يقولُ لبعضٍ : أين تريدون ؟ أين تذهبون, قال : فجعل بعضهم يُخفي من بعضٍ, لأنَّهُ لا يدري هذا على ما خرج هذا, فأخذ بعضهم على بعضٍ المواثيقَ أن يُخبرَ بعضهم بعضًا, فإنِ اجتمعوا على شيءٍ, وإلا كتم بعضهم على بعضٍ, قال : فاجتمعوا على كلمةٍ واحدةٍ, ?فقالوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوْا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ, فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا, وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ - إلى قولِهِ –مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا؟ قال: فهذا قولُ الفتية، قال : ففُقدوا فجاء أهلُ هذا يطلبونَهُ لا يدرون أين ذهب، وجاء أهلُ هذا يطلبونَهُ لا يدرون أين ذهب، فطلبهم أهلوهم, لا يدرون أين ذهبوا، فرُفِعَ ذلك إلى الملكِ، فقال: ليكونَنَّ لهؤلاءِ شأنٌ بعد اليومِ, قومٌ خرجوا ولا يُدرى أين توجهوا في غيرِ جنايةٍ، ولا شيءٍ يُعرفُ, فدعا بلوح من رصاصٍ، فكتب فيهِ أسماءهم، وطرحَهُ في خزانتِهِ، فذلك قولُ اللهِ تباركَ وتعالى: {أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوْا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} والرقيمُ هو اللوحُ الذي كتبوا، قال : فانطلقوا حتى دخلوا الكهفَ، فضرب اللهُ على آذانهم, فناموا، قال: فقال ابنُ عباسٍ: واللهِ لو أنَّ الشمسَ تطلعُ عليهم لأحرقتهم، ولولا أنَّهم يُقلبونَ، لأكلتهمُ الأرضُ, فذلك قولُ اللهِ تباركَ وتعالى: (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) يقولُ : بالفناءِ (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)، ثم إنَّ ذلك الملكَ ذهب وجاء ملكٌ آخرُ، فكسر تلك الأوثانَ وعبدَ الله، وعدلَ في الناسِ، فبعثهم اللهُ لما يريدُ، فقال بعضهم لبعضٍ: { كَمْ لَبِثْتُمْ } قال بعضهم : (يَوْمًا) وقال بعضهم: بَعْضَ يَوْمٍ, وقال بعضهم : أكثرُ من ذلك, فقال كبيرهم: لا تختلفوا, فإنَّهُ لم يختلف قومٌ قطُّ إلا هَلكوا, قال: فقالوا: {فَابْعَثُوْا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ

وَلْيَتَلَطَّفْ} يعني بأزكى: بأطهرَ، إنَّهم كانوا يذبحونَ الخنازيرَ، قال: فجاء إلى المدينةِ. .. الخ [1].

التغليظ في ﴿لَوَلَّيْتَ﴾... ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ لإبراز الهيبة الحافظة التي ضربها الله عليهم كي لا يقترب منهم أحد طوال قرون لبثهم.

يلاحظ البقاعي – رحمه الله – هنا لطيفة: أنّ تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال سنة إلهية لحفظ الأجساد من التأكل، والكلب ينال بركة وصحبة الصالحين فيذكر في محكم التنزيل عبر القرون.

*﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾

إشراقة بلاغية: حوارية واقعية تبين استمرار حياتهم الطبيعية وحذرهم؛ فالقضية لديهم ما زالت قضية دين ومطاردة.

﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ (المراد الفضة المضروبة نقدًا). أَزْكَىٰ طَعَامًا أطهر وأحلّ وأطيب. وكلمة ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ تتوسط المصحف وتستدعي أعلى درجات الكتمان والحذر.

ينبه ابن عاشور وسيد قطب – رحمهما الله- إلى أن المؤمن رغم التوكل العظيم لا يلغي الأخذ بالأسباب والحيطة والحرص على أكل الحلال الطيب حتى في أصعب الظروف.

*﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾، إشراقة بلاغية: حصر الخيارات المتاحة لدى أهل الطغيان: القتل الشديد بـ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أو الإكراه على الكفر والارتداد ﴿يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾.

ومن اللطائف: ختم الآية بـ ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ يُبين وعي الفتية الحاد بأن خسارة الدين هي الخسران الحقيقي الدائم، وأن الانتكاس للباطل بعد معرفة الحق هو الهلاك الذي لا فلاح معه.

(وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ

1 - أخرجه الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (563)، وابن أبي شيبة كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (5/ 366) باختلاف، وحسن ابن حجر العسقلاني إسناده في تغليق التعليق (ج4/ص244).

رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (24) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا(27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا(31))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة الكهف تختتم قصة فتية الكهف وتستخلص لِبابَها العقدي والسلوكي، ثم تنقل الخطاب بأسلوب فاصل إلى توجيه النبي ﷺ والأمة من بعده، موازنةً بأسلوب التصوير الفني المعجز بين مصير أهل الطغيان ومآل أهل الإيمان.

* ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

إشراقة بلاغية: الرابط (الكاف) في "وكذلك" يجسر بين هداية الله للفتية في الغار وبين كشف أمرهم للناس؛ فكما لطَفَ بهم أصحابًا، لطَفَ بهم دليلًا على معجزته.

الفِعل "أَعْثَرْنَا" يحمل دلالة المجيء على الشيء صدفة ودون قصد سابق من البعثاء أو المبعوثين؛ إشارةً إلى يد القضاء الخفيّة التي حرّكت الحوادث دون إرادة من الطرفين.

ذكر ابن عاشور – رحمه الله أنّ الله جعل غاية العثور عليهم بيّنة: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، فقد كان أهل ذلك الزمان قد اختلفوا في بعث الأجساد، فكانت القصة برهانًا حسّيًا مُشاهدًا.

ويلمح البقاعي – رحمه الله - أنّ في ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ غلبة أصحاب السلطان والجهل الذين حوّلوا دلالة التوحيد والبعث إلى تعظيم المظاهر وتشييد البنيان فوق القبور.

وقيل: أنّ ذلك لم يمكن ممنوعا ولا محرماً في زمانهم، بخلاف أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حيث شنع النبي صلى الله عليه وسلم على اتخاذ القبور مساجد، فقال:

عن عائشة رضي الله عنها: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مَرَضِه الذي لَم يَقُمْ منه: لَعَنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارى؛ اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهم مَساجِدَ، قالت: فلَولا ذاك أُبرِزَ قَبرُه، غيرَ أنَّه خُشيَ أن يُتَّخَذَ مَسجِدًا. وفي رِوايةِ ابنِ أبي شيبةَ: ولَولا ذاك لَم يَذكُرْ: قالت. [1].

وعنها رضي الله عنها: لَمَّا اشتَكى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذَكَرَت بَعضُ نِسائِه كَنيسةً رَأينَها بأرضِ الحَبَشةِ يُقالُ لَها: ماريةُ، وكانَت أُمُّ سَلَمةَ وأُمُّ حَبيبةَ رَضيَ اللهُ عنهما أتَتا أرضَ الحَبَشةِ، فذَكَرَتا مِن حُسنِها وتَصاويرَ فيها، فرَفَعَ رَأسَه، فقال: أولَئِكِ إذا ماتَ منهمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوا على قَبرِه مَسجِدًا، ثُمَّ صَوَّروا فيه تلك الصُّورةَ، أولَئِكِ شِرارُ الخَلقِ عِندَ اللهِ[2].. إلى أحاديث أخرى كثيرة في النهي.

*﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾، أسلوبيًا وبلاغيًا: صياغة إلهية عجيبة لتفنيذ الجدل الفارغ. وصَفَ القولين الأوَّلين: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ (رميًا بالظن دون علم)، بينما حين ذكر القول الثالث: ﴿ويقولون سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، أقرّه بالسكوت عنه وبإدخال "واو الثمانية" المؤذنة باتّصال الصفة وتأكيد الرقم.

استدل ابن تيمية – رحمه الله - بهذه الآية على أدب المناظرة والبحث؛ فالله حكى الأقوال، ثم زيّف الباطل منها، وسكت عن الصحيح، وأمر بترك التنازع فيما لا ينفع عمليًا.

أمّا سيد قطب – رحمه الله - فيرى فيها تربية للمسلم ليترفع عن الخوض في التفصيلات الشكليّة والتخمينات الهامشية، وليركز على العبرة والغاية الذاتية للقصة.

توجيه المراء: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾؛ أي جدالًا خفيفًا لا تعمق فيه ولا مماراة.

*﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ...﴾، بيانيًا وسياقيًا: اعتراض استطرادي في منتصف القصة لمناسبة نزول السورة (حين تأخر الوحي عن النبي ﷺ حين سُئل عن أهل الكهف وقال: أخبركم غدًا ولم يستثنِ).

---

1 - أخرجه البخاري (4441)، ومسلم.(529)

2 - أخرجه البخاري (1341)، وابن حبان (3181) باختلاف يسير، ومسلم (528)، والنسائي (704) بنحوه.

النون في ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ نون التوكيد الثقيلة، تفيد الحزم والنهي الجازم عن قطع الآدمي بالستير دون ردّ الأمر إلى مشيئة مالكه.

ذكر ابن القيم – رحمه الله – أنّ أصل العبودية هو تجريد المشيئة لله، وأن يعلم العبد أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا ينفذ له أمر إلاّ بإذن الله.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: بلسم للنفس عند الذهول، ومخرج للعبد إذا غفل عن تعليق الأمور ببارئها.

﴿وقل عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾: تسليم وتطلع دائم لتسديد الهداية الإلهية.

*﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا...﴾، هنا إعجازًا لغويًا وحسابيًا: 300 سنة شمسية تُعادل تمامًا 309 سنة قمرية (فالزيادة "تسعًا" هي الفارق الدقيق بين الحسابين الشمسي والقمري).

بلاغيًا: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ رَدٌّ لحقيقة العلم إلى مصدره التام، وقطعٌ للخصوم والخرّاصين.

أسلوبيًا: أسلوب التعجب البليغ: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾؛ أي ما أبصره جلّ وعلا وما أسمعه! إحاطة شاملة بالغيب لا يشاركه فيها مشارك ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

* ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ...﴾، سياقًا: الانتقال من القصة إلى المحور التوجيهي؛ الثبات على الوحي.

بيانيًا: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾؛ كتاب محفوظ بوعيد وقوة إلهية، لا يتطرق إليه التغيير ولا ينفع معه الالتجاء إلى غيره ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (أي ملجأً وموئلاً).

*﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، سياقًا ونزولاً: نزلت حين طلب أشراف قريش من النبي ﷺ أن يُفرد لهم مجلسًا دون ضعاف المسلمين (كفقراء الصحابة وصهيب وبلال).

تفسيريًا وبلاغيًا: "اصْبِرْ نَفْسَكَ": حبْس النفس وضبطُها على صحبة أهل الحق، وإن كانوا فقراء ضعفاء.

وهذا المعنى قريب أو توكيد لما جاء في سورة عبس، حيث انشغل النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة كبراء قريش عن إجابة أبن أم مكتوم الأعمى الطالب للتعليم والراغب للهداية فعاتبة ربه جل وتعالى وكان ذلك الكتاب قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: تحذير من الالتفات إلى القشور.
إعراب: (الْوَاوُ): بحسب ما قبلها (استئنافية أو عاطفة)، لَا :حرف نهي وجزم مبني لا محل له من الإعراب.
(تَعْدُ): فعل مضارع مجزوم بـ (لا)، وعلامة جزمه حذف حرف العلة (الواو)، والضمة على الدال دليل عليها.
(عَيْنَاكَ): فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف لأنه مثنى، وهو مضاف، و(الكاف) ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه.
(عَنْهُمْ) :(عن) حرف جر، و(هم) ضمير متصل مبني في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (تعد).
(تريد زينة الحياة الدنيا)، (تُرِيدُ): فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت).

(زِينَةَ) :مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو مضاف، الْحَيَاةِ :مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره، الدُّنْيَا :نعت (صفة) لكلمة "الحياة" مجرور، وعلامة جره الكسرة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وجملة (تُرِيدُ)...في محل نصب حال.

يضع سيد قطب – رحمه الله - هذا المبدأ كأساس للتصوّر الإسلامي للقيم؛ الميزان ليس بالمال والسلطان، بل بإقبال القلب على الله.

أمّا البغوي – رحمه الله - فيبيّن أنّ "الإغفال" في ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أي: جعلنا قبله غافلاً عن ذكرنا، حتى صار أمره "فُرُطًا" (ضائعًا وفرطًا متناثرًا).

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: اء الأَقْرَعُ بْنُ حابِسٍ التَّمِيمِيُّ وعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ فوجدَا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مع صُهَيْبٍ وبِلالٍ وعمارٍ وخَبَّابٍ قاعِدًا في ناسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ المؤمنينَ فلمَّا رَأَوْهُمْ حولَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَقَرُوهُمْ فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بهِ وقَالوا إنَّا نُرِيدُ أنْ تَجْعَلَ لَنا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنا بهِ العَرَبُ فَضْلَنا فإنَّ وُفُودَ العَرَبِ تأتيكَ فَنَسْتَحْيِي أنْ تَرَانا العَرَبُ مع هذه الأَعْبُدِ فإذا نحنُ جِئْناكَ فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ فإذا نحنُ فَرَغْنا فَاقْعُدْ مَعهُمْ إنْ شِئْتَ قال نَعَمْ قالوا فَاكْتُبْ لَنا عليكَ كتابًا قال فَدعا بِصَحِيفَةٍ ودعا عليًّا لِيَكْتُبَ و نحنُ قُعُودٌ في ناحِيَةٍ فنزلَ جِبْرَائِيلُ فقال وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ... الآيةُ فَرمى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بِالصَّحِيفَةِ ثُمَّ دعانا فَأَتَيْناهُ [1].

1 - أخرجه ابن ماجه (4127) واللفظ له، وابن أبي شيبة في ((المسند)) (477)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار))(367) ، وقال وابن كثير في تفسيره (ج3/ص255) وقال عن إسناده: غريب.

*﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾، أسلوبيًا: صيغة "فليؤمن / فليكفر" هي تحديدٌ وتهديدٌ جازم وبليغ، يُتبَع فورًا ببيان العاقبة.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾: النار مشبّهة ببناء أو خيمة عظيمة تطوّقهم من كل جانب فلا مناص.

أحاط بهم سرادقها: حائط من نار يطيف بهم كسرادق أو جدران الخيمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي حائط من نار، نعوذ بالله من ذلك.

﴿وإن يستغيثوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾: تهكّم وبلاغة ساخرة في لفظة "يُغَاثُوا"؛ فالإغاثة تقتضي الرحمة، لكنها هنا إغاثة بسائل كالمعدن المذاب الشديد الحرارة الذي يُسقط فروة الوجه قبل أن يصل الجوف. ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾!

*﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، بلاغة المقابلة والتضاد (المُقابلة الصريحة):

*﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

مقابل النار المحيطة والشراب الشاوي بـ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

مقابل العذاب والحرارة: النعيم المادي والنفسي (أساور من ذهب، ثياب خضر من سندس وإستبرق، اتكاء على الأرائك).

السندس: ما رَقَّ ودَقَّ من الديباج والحرير، وأمّا الإستبرق فهو ما غَلُظَ منه وكان متينًا فاخرًا.

ختام يملؤه بالرضا: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾؛ ردٌّ وتضادٌّ مباشر ومطابق مع خاتمة الآية السابقة ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، لتكتمل لوحة الجزاء في أبهى تناسق أسلوبي وبلاغي وقرآني.

*﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا(34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ

بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة الكهف واحدةٌ من أعمق المشاهد القرآنية تصويرًا لنفسية الإنسان حين تفتنه النعمة، ومحاججةٍ بين عقليتين: عقلية الرؤية السطحية الغارقة في الماديات، وعقلية التوحيد النيرة المرتكزة على المطلق.

*﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

يبدأ النص بالأمر «واضرب» لشحذ الذهن، والضرب هنا إيقاع المثل واستحضاره بظلاله النفسية.

إشراقة بلاغة وبيانية: اسناد الفعل إلى نون العظمة ﴿جَعَلْنَا﴾ للتذكير بأصل النعمة ومصدرها. يصور الترتيب الإلهي للهندسة الزراعية بأسلوب رائع: أصل الجنتين من عنب (الفاكهة والترف)، وحُفّتا بالنخل (حماية وسور ومصدر غذاء أساسي)، وليبقى الوسط للزرع (قوت يومي) مكانا شاسعاً ينال نصيبة من ضوء الشمس وحرارتها الضرورية للزرع. هذا التكامل الأفق والعاطفي أضفى على المشهد جمالاً وأمناً واكتفاءً ماديًا مطلقاً.

العمق التفسيري: يشير البقاعي – رحمه الله - إلى أن حفاف النخل يُمسك الرياح عن الأعناب والزرع، فالترتيب القرآني ليس مجرد جمل جمالية، بل رسم لواقع متكامل أُحكمت أسبابه.

*﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ إشراقة بلاغية: استخدام ﴿كِلْتَا﴾ المؤكدة لانتفاء الخلل، وفعل ﴿آتَتْ﴾ الذي يحيي المشهد كأن الأرض معطاءة بمحض إرادتها.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أُعير النقص اسم الظلم فالأرض خادمة أمينة لا تنقص من حق صاحبها حبّة، ففي ذلك شيء من التعريض بالإنسان الذي من صفاته الظلم

والجهل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:72].

إسناد تفجير النهر إلى الذات العلية ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ يرمز إلى استمرارية المادة والحياة بلا شقاء في السقي؛ فالماء يتدفق في أوساطهما برغد ويسر.

*﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَكَرُّ نَفَرًا﴾، اختلف العلماء في المراد بكلمة "ثَمَر" بناءً على اختلاف القراءات الواردة فيها (الفتح والضم)، على وجهين رئيسيين:

المعنى الأول: الثمار الظاهرة وما تنتجه الأشجار من الثمار المأكولة: وهو المعنى الظاهر للكلمة لمن قرأها بفتح الثاء والميم (ثَمَر) أو بضمها (ثُمُر)، على أنه جمع "ثمرة" أو "ثمار".

المعنى الثاني: أصل الشجر: ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بها الأصول والنخيل والأشجار التي تحمل تلك الثمار، ويدل عليه قوله تعالى بعد ذلك: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} أي بأصله وما يملك.

المعنى الثالث: المال العظيم والرزق الواسع؛ المال والذهب والفضة: روى المفسرون كابن عباس ومجاهد وقتادة أن المراد بـ "الثمر" هنا هو المال الكثير المتنوع الذي ينمو ويتكاثر، وليس فقط ما يخرج من الشجر، لأن صاحب البستان أتمّ مفاخرته بقوله: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا}، فكان الثمر هنا كناية عن عظيم النعم والأموال.

الانتقال من وصف النعمة المادية إلى أثرها النفسي. جملة ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ تبيّن أن الاستكبار جرى أثناء تنقلات الحديث الاعتيادي، مما يكشف عن استقراء الطغيان الباطني.

البيان: تقديم الذات ﴿أَنَا﴾ وأفعل التفضيل ﴿أَكْثَرُ﴾ و﴿أَعَزُّ﴾ يمثلان عقدة الاستعلاء بالمال والرجال/النفر. وكما يلاحظ ابن عاشور – رحمه الله -، أضاف الثمر إلى المال، مما يدل على ثراء تنوعت أصوله وتضاعفت مدخراته.

*﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾، البيان وسياق الحَال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بالإفراد؛ إما للإيجاز أو لأنه كان داخل إحداهما وهو يستعرض عزته.

اللطيفة الإيمانية: قيد الحق دخوله بـ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ ليربط بين استعظام النعمة والغفلة عن المنعم وبين ظلم الذات.

إشراقة بلاغية: الإشارة بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ كأنه يستحضر المادة ويلمسها، واستخدام ﴿تَبِيدَ﴾ ذات البُعد الصوتي الدال على الفناء المطلق، مع نفي الظن واستبعاد زوال المظاهر المادية، وهو داء الركون للدنيا الذي فككه ابن القيم في تحليله لآفات القلوب.

*﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، التدرج النفسي: من الغرور بالدنيا إلى الشك في الآخرة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ثم الانتقال إلى القياس الفاسد والتدليل الزائف: «إن كان هناك بعث، فمن أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة«!

التفسير البياني: كشف سيد قطب – رحمه الله - هنا عن طبيعة "النفعية الذاتية" لدى المستكبر؛ فهو يتوهم أن حظوته المادية في العاجلة دليل على كرامته عند الله في الآجلة، مفصلاً بين العطاء الإلهي ابتلاءً والعطاء إكرامًا.

*﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾

المحاجة والأسلوب: يبدأ الصاحب المؤمن باستفهام إنكاري تقريعي شديد ﴿أَكَفَرْتَ﴾.

ثمّ التدرج، حيث أرجعه إلى أصله الأول والتاريخي العضوي: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ (أصل الجنس)، ثم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ (أصل الفرد)، ثم مرحلة التعديل والتكميل ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾. هذا التدرج التفكيكي يهدم غرور الإنسانية والمباهاة بالمال والنفر، إذ يذكره بحقيقته الطينية الضعيفة.

*﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، الرسم القرآني والبلاغة: ﴿لَّٰكِنَّا﴾ أصلها (لكن أنا)، فيها إدغام وقطع للمواجهة؛ أي: إن كنتَ أنتَ تفتخر بمالك وتكفر، فأنا أعلن هويتي واستقلالي الإيماني: (الله ربي) [1]..

يعلق ابن تيمية على توحيد الربوبية والإلهية الممتزج هنا: الصاحب المؤمن رد القوة والمُلك للرب الحقيقي، وقطع كل مظاهر الشرك الأسبابِي.

*﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾، ﴿وَلَوْلَا﴾ تحضيضية بمعنى "فهلا"، تدله على أدب النعمة.

البيان والتأصيل: الكلمة الشافية للقلب العابد ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ تحويل النظر من السبب المادي المشهود إلى القوة الغيبية الصانعة. ثم يواجه المؤمن النقص

1 - انظر الطبري: جامع البيان (ج18/ص23).

المادي بيقين نفسي: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾، مستعلياً بالإيمان على مقاييس الأرض.

وقيل: ما حدث للجنتين من نوع عين الحسد أو الإجاب، كما في حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف: رَأى عامِرُ بنُ رَبيعَةَ سَهْلَ بنَ حُنَيفٍ يَغتَسِلُ، فَقال: واللهِ ما رَأيتُ كَاليومِ، وَلا جِلْدَ مُخبَّأةٍ! قال: فلُبِطَ بِسَهلٍ، فأُتِيَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فَقيلَ لَه: يا رَسولَ اللهِ، هل لَك في سَهلِ بنِ حُنَيفٍ؛ واللهِ ما يَرفَعُ رَأسَه؟ فَقال: هل تَتَّهِمونَ لَه أحدًا؟ قالوا: نَتَّهِمُ عامِرَ بنَ رَبيعةَ، قال: فَدعا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عامرًا، فتَغلَّظَ عليهِ، وَقال: عَلامَ يَقتُلُ أَحدُكم أَخاه؟! أَلا بَرَّكتَ! اغتَسِل لَه، فغَسَلَ لَه عامِرٌ وَجهَه ويَديهِ، ومِرفَقَيه ورُكبَتَيه، وأَطرافَ رِجليْه، ودَاخِلةَ إزارِه في قَدَح، ثُمَّ صُبَّ عَليه، فَراحَ معَ النَّاسِ لَيسَ به بَأسٌ. [1]..

وروي عن هشام بن عروة عن أبيه إنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه أو دخل حائطاً من حيطانه، قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله [2]..

*﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾.

الصورة البيانية: يرسم المؤمن مشهد الهلاك المحتمل بدقة فائقة. ﴿حُسْبَانًا﴾ (صواعق أو عذاباً بمقدار محدد يقضي عليها)، فتتحول الجنة الخضراء إلى ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (أرضاً ملساء جراء الدماء/التراب المترسب الذي لا ينبت ولا تثبت عليه قدم).

الإعجاز اللغوي: ﴿غَوْرًا﴾ المصدر عُبر به للمبالغة؛ أي غائراً جداً في أعماق الأرض. وقوله ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ يكسر كبرياء علمه وحيلته المادية.

فإن قيل: لم تمنى الرجل المؤمن هلاك جنّة صاحبه الكافر؟ أجاب العلماء أن ذلك لسببين رئيسيين يتعلقان بالهداية والعقيدة:

أراد أولاً: المؤمن كسر كبرياء صاحبه وغروره بماله، وأراد ثانيا: علاجاً لقلبه: فتمنى زوال النعمة الدنيوية التي كانت سبباً في كفر صاحبه لعلّ ذلك يعيده إلى رشدة ويجعله يتوب إلى الله.

وكذا أراد تذكيراً لنفسه ونفس صاحبه وتعليقا لقلبيهما بالآخرة: فأراد إثبات أنّ النعم الفانية لا قيمة لها إن ألهت عن الله. وثقة بالله: أمل المؤمن أن يعوضه الله خيراً منها في الآخرة أو حتى في الدنيا.

---

1 - أخرجه أحمد (16023)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7619) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده.

2 - أخرجه سعيد بن منصور في سننه (1341)، وأبن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان

*﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

المشهد والتصوير الحركي: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ فعل مبني لما لم يسم فاعله يشعر بوجوم الفاجعة ومباغتتها من كل جانب.

الكناية البلاغية: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن الندم والتلهف والتحسر العاجز، ولاحظ

الرسم المتناقض والتقابل: الجنة التي كانت أكلها دائم، أصبحت ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ سقطت الدعامة وسقط العنب فوقها. هنا تنطلق الآهة المتأخرة: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، لتثبت أن العلة لم تكن في المال، بل في الشرك الخفي (اعتماد السبب ونسيان المسبب).

*﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، إشراقة في النفي البلاغي: كُسر الادعاء الأول ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ فغابت الفئة، وعجز هو في نفسه ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. يوضح محمد قطب – رحمه الله - هنا هوان القوة البشرية والجمعية عندما تتجرد من الإسناد الإلهي.

*﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، التعقيب والتقرير: ﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة للمكانة والزمان المنكشف فيها الحق.

القراءة اللغوية: ﴿الْوَلَايَةُ﴾ بفتح الواو (النصرة والتدبير)، وبالكسر (المالكية والملتزمين بالعبودية). الله هو الحق، وكل ما عداه هباء. وختام الآية بتفضيل ثواب الله وعاقبته يتسق مع المقارنة الزائفة التي بدأ بها صاحب الجنتين.

*﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

التصوير الخاطف: ينتقل المثل من الفرد إلى الشمول. حركة خضرة وازدهار مباغتة ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، ثم تعقيب سريع بحرف العطف الفاء ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ لبيان سرعة انقضاء عمر الدنيا.

البلاغة الحركة: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ صورة للجفاف والهوان والشتات بعد التماسك والبهجة، تُظهر قدرة الله النافذة في التحويل والتغيير.

وهو المعنى الذي يؤكد عليه الله جل وتعالى في قرآنه بأساليب وصيغ متنوعة أن الدنيا سريعة زائلة، فاحيانا لا تذكر كما في سورة المؤمنون، وأحياناً ساعة من نهار، وأحيانا يوما أو بعض يوم، وإحيانا (قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [المؤمنون:114]، والمقصود التحذير من الاغترار بالدنيا الفنانية، كما اغتر صاحب

الجنيتين، والتي قد تزول فجأة، وإن بقيت فإنها لا تغني عن الآخرة شيئا، فهو تحذير عن الإعراض عن الآخرة الباقية: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ القيامة: 20-21].

*﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

القاعدة الكلية والميزان النهائي: حصر المال والبنون في حدود «الزينة» الفانية العارضة.

الأسلوب التفضيل والتقابلي: مقابلة المتاعب الفانية بـ ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ (من الأقوال والأعمال التي لا تفنى بفناء الدنيا).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خُذُوا جُنَّتَكُمْ مِنَ النارِ؛ قولوا: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولَا إلهَ إلَّا اللهِ، واللهُ أكبرُ، فإنَّهنَّ يأتينَ يومَ القيامةِ مُقَدِّمَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ وَمُجَنِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ. [1].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه قال: لَأَنْ أقولَ: سُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكبَرُ أحَبُّ إليَّ ممَّا طلَعَتْ عليه الشَّمسُ[2].

ينبه البغوي وابن القيم – رحمهما الله - إلى أن العاقل هو من يجعل "الزينة" خادمة للـ "باقيات"، ولا ينخدع بالأمل الكاذب، بل يبني أمله على ما يبقى عند ربك ثواباً وعقباً.

راجع تفسير (ولذكر الله أكبر) (العنكبوت:45]، قال الشيخ الكملي الجزائري: لم يذكر المفضول هنا لإشاعة فضل الفاضل، لا مقارنة بينه وبين مفضول ولذلك لم يذكره.

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47)وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ

1 - أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (10684)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (17/3)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4027) باختلاف يسير. وصحح الألباني إسناده.
2 - أخرجه مسلم (2695)، والترمذي (3597)، والبزار (9173)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10603) واللفظ، وابن حبان في صحيحه (834).

بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا(53) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا(59))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة الكهف تأتي مشهداً رهيباً يُعري حقيقة الدنيا وزخرفها الزائل الذي سبَقَها في الآيات (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)، لتضع الإنسان أمام حقيقة العرض الأكبر والجزاء، مع تحليل عميق لنفسية الإنسان، وجداله، وموقفه من الهدى.

*﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾
﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾: التسيير هنا يعني قلعها من قواعدها وجعلها كالعهن المنفوش ثم كالسراب. الجبال التي هي أوتاد الأرض وثباتها تُسيَّر كأنها سحاب.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: أي بارزةً ظاهرةً ليس عليها جبل ولا شجر ولا بناء يسترها ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾، أو كما في قوله تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) [طه:107]، قال الطبري: واختلف أهل التأويل في معنى العوج والأمت، فقال بعضهم عنى بالعوج في هذا الموضع: الأودية، وبالأمت: الروابي والنشوز.

وعن عكرمة، قال: سئل ابن عباس، عن قوله تعالى: (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) قال: هي الأرض البيضاء، أو قال: الملساء التي ليس فيها لبنة مرتفعة.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد

وقيل: أن البارز هو ما في بطنها من الأجداث والأثقال، كما في قوله تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) [الزلزلة:2] [1].

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: التعبير بالماضي ﴿حَشَرْنَاهُمْ﴾ لتحقق الوقوع وثبوته كأنه وقع وانتهى.

إشراقة بلاغية: عطف الماضي على المضارع: بدأ بالمضارع ﴿نُسَيِّرُ... وَتَرَى﴾ لتجسيد المشهد واستحضار صورته الحية في الذهن (تسيير الجبال وتكشف الأرض)، واستحضار آخر أيام الدينا، ثم انتقل إلى الماضي ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ للإشعار بأن الحشر أصل مفروغ منه مقضيّ في علم الله وللذكير بقصر عمر الدنيا، فقد وتلاشت كأن تكن.

الدقة اللسانية في ﴿نُغَادِرْ﴾: "المغادرة" هي ترك الشيء خلف الظهر. ونفي المغادرة بـ ﴿فَلَمْ﴾ المستغرِقة مع تأكيد ﴿أَحَدًا﴾ يُفيد الإحاطة الشاملة التي لا تخرم روحاً واحدة من الأولين والآخرين.

ينبه ابن عاشور – رحمه الله - إلى تناسب الرصانة بين هول تسيير الجبال الشامخة وبين إحاطة الحشر بالبشر الضعاف؛ فالذي سير الجبال الصم لا يعجزه جمع الذرات البشرية سبحانه.

ويرى البقاعي – رحمه الله - في تناسب الآيات أن الله لما ذكر فناء الدنيا بالماء والزرع (مَثَل الحياة الدنيا)، أتبعه بفناء أصلها الصلب (الجبال والأرض) لتنكشف الحقيقة الكبرى.

*﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾

*﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: العرض هنا عرض المكلفين للتحقيق والجزاء. و﴿صَفًّا﴾ إما صفاً واحداً جميعاً، أو صفوفاً متتابعة كل أمة صف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُتيَ بلَحمٍ فرُفِعَ إليه الذِّراعُ، وكانَت تُعجِبُه، فنَهَشَ منها نَهشةً، ثُمَّ قال: أنا سَيِّدُ النَّاسِ يَومَ القيامةِ، وهل تَدرونَ مِمَّ ذلك؟ يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ الأوَّلينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ، يُسمِعُهمُ الدَّاعي ويَنفُذُهمُ البَصَر[2]..

---

1 - انظر الطبري: جامع البيان (ج17/ص49)، وحديث سهل بن سعد أخرجه أبو يعلى (7549) واللفظ له، وأخرجه البخاري (6521)، ومسلم (2790) باختلاف يسير

2 - أخرجه البخاري (4712)، ومسلم(194)

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: جئتم حفاة عراة غُرْلاً، تجردتم من العشيرة والمال والسلطان والأسباب التي استكبرتم بها.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: مواجهة وتقريع للغامطين والمكذبين بالبعث.

إشراقة بلاغية: التشخيص والالتفات: الالتفات من الغيبة ﴿وَعُرِضُوا﴾ إلى الخطاب المباشر المريع ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، مفاجأة تخلع القلوب؛ حيث ينتقل المشهد من الوصف الإخباري إلى مواجهة جبار السماوات والأرض للخلق!

كما أنّ التنكير والتجريد في ﴿صَفًّا﴾ يفيد الهيبة والانتظام الصارم، فلا مفر ولا التفات ولا تحرك إلا بإذن.

يصور سيد قطب – رحمه الله - المشهد بقوله: "إنها الروعة المذهلة.. الروعة التي تجعل كل جبار عنيد خاشعاً، وتجعل كل مستكبر صغيراً.. تجردوا من كل ملابس الزينة وعوارض الحياة، ووقفوا كما ولدوا صفاً واحداً."

ويشير ابن القيم – رحمه الله - إلى أنّ العبد يرجع إلى ربه فردياً عارياً من السبب والنسب، ليبقى فقط "العمل الصالح" الذي تركوه خلف ظهورهم أو أعدوه لليوم.

عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تُحشَرونَ حُفاةً عُراةً غُرلًا، قالت عائِشةُ: فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، الرِّجالُ والنِّساءُ يَنظُرُ بَعضُهم إلى بَعضٍ! فقال: الأمرُ أشَدُّ مِن أن يُهمَّهم ذاكِ. [1].

*﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: جنس الكتاب، أي صحائف الأعمال بين يدي أصحابها، وهو قريب مما عبر عنه في سورة التكوير بقوله سبحانه: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ) [التكوير:14]، و﴿مُشْفِقِينَ﴾: الخوف المزجوج بالرعب والهيبة والوجل الشديد.

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾: لا يترك هنة ولا خطيئة ولا لفظة صغيرة قبل الكبيرة إلاّ ضبطها وعدّها.

---

1 - أخرجه البخاري (6527)، ومسلم (2859)، والنسائي (2084) باختلاف يسير، وابن ماجه (4276) بنحوه.

*﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾: تجسّم الأعمال، فعملهم السالف حاضر أمام أعينهم ثواباً أو عقاباً، مكتوباً ومصوراً.

البناء لما لم يسم فاعله ﴿وَوُضِعَ﴾: لإفادة التهويل، فالصحائف تنشُر وتوضع بمهابة وتلقائية دون حاجة لذكر الفاعل.

إشراقة بلاغية: تقديم الصغيرة على الكبيرة: تقديم ﴿صَغِيرَةً﴾ دقيق جداً؛ لأن الإنسان عادة يستهين بالصغائر ويغفل عنها ويتذكر الكبائر، فلما رأوا ضبط الصغائر الدقيقة التي نسوها، أيقنوا أن الكبائر أحصيت بالأولى!

التعجب والنداء ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ﴾: نداء الهلاك، والاستفهام التعجبي في ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ يبرز الدهشة الشديدة والدنس الذي يعصر صدورهم من دقة إحصاء التمالؤ والذنوب.

وَكَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَقُولُ: يَا وَيْلَتَاهُ! ضِجُّوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الصَّغَائِرِ قَبْلَ الْكَبَائِرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الصَّغِيرَةُ التَّبَسُّمُ، وَالْكَبِيرَةُ الضَّحِكُ، يَعْنِي مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ. وَحَكَى الْمَاوَرْدِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الصَّغِيرَةَ الضَّحِكُ. قُلْتُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَغِيرَةً إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ الضَّحِكَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ رِضًا بِهَا وَالرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ كَبِيرَةً، فَيَكُونُ وَجْهُ الْجَمْعِ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ. أَوْ يَحْمِلُ الضَّحِكَ فِيمَا ذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ عَلَى التَّبَسُّمِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:" فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها «3» " وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّ الصَّغَائِرَ اللَّمَمُ كالمسيس والقبل، والكبيرة المواقعة والزنى [1].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال : إياكم ومحقراتِ الذنوبِ فإنهُنَّ يجتمعنَ على الرجلِ حتى يُهلكنَهُ إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضرب لهنَّ مثلًا كمثلِ قومٍ نزلوا أرضَ فلاةٍ فحضر صنيعُ القومِ فجعل الرجلُ ينطلقُ فيجيءُ بالعودِ والرجلُ يجيءُ بالعودِ حتى جمعوا سوادًا فأَجَّجُوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها [2].

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أنّ جزاء الأعمال هو نفس الأعمال تجسّدت لعمالها؛ فـ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ يعني أن السيئة هي التي تسوء صاحبها وتظهر في صورها البشعة حقيقةً يوم القيامة.

---

1 - انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (ج10/ص419).
2 - أخرجه الطبراني (261/10) (10500)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (7263)، والشجري في ((الأمالي)) (179) باختلاف يسير، وصحح أحمد شاكر إسناده.

] *﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾: خرج عن طاعة ربه، أصل الفسق خروج النواة من قشرة التمرة.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾: استفهام إنكاري توبيخي شنيع، ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾: بئس هذا البديل الذي استبدلوا فيه الشيطان بعبادة وطاعة الرحمن، وكل من حاد عن عبادة الله والاستسلام لأوامره ونواهيه فقد عبد الشيطان بعبادته هوى نفسه.

رَوَى مُجَالِدٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: إِنِّي لَقَاعِدٌ يَوْمًا إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي هَلْ لِإِبْلِيسَ زَوْجَةٌ؟

قُلْتُ: إِنَّ ذلك لعرس مَا شَهِدْتُهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا تَكُونُ ذرية إلاّ من زوجة، فَقُلْتُ: نَعَمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَتَوَالَدُونَ كَمَا يَتَوَالَدُ بَنُو آدَمَ. وقيل غير ذلك [1]..

استعمال الفاء في ﴿فَفَسَقَ﴾: الفاء للسببية والتعقيب، أي إن أصل تكوينه من الجن (عالم الشهوة والاختيار) كان سبباً في فسوقه وخروجه لما طغت عليه الكبرياء.

التصوير والتقبيح بـ ﴿وهم لكم عدو بئس للظالمين بَدَلًا﴾: إبراز لسفاهة عقل المستكبر والمشرك؛ كيف يستبدل الولي الرحيم الصمد، بعدو مضل حاقد أقسم على إغواء أبيهم آدم وذريته؟!

عن عثمان بن أبي العاص قال: يا رسولَ اللهِ حالَ الشيطانُ بيني وبين صلاتي وبين قراءتي قال: ذاك شيطانٌ يقالُ له خِنْزَبٌ فإذا أنت حَسَستَه فتعوذ باللهِ منه واتفلْ عن يسارِك ثلاثًا قال: ففعلتُ ذاك، فأذهبه اللهُ عزَّ وجلَّ عني [2]..

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ إبليسَ يضعُ عرشَه على الماءِ، ثم يبعثُ سراياه ، فأدناهم منه منزلةً أعظمَهم فتنةً ، يجيءُ أحدُهم فيقولُ : فعلتُ كذا وكذا ، فيقولُ ما صنعتَ شيئًا ، ويجيءُ أحدُهم فيقولُ : ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينَه وبين أهلِه ، فيُدْنِيه منه ، ويقولُ : نعم أنتَ [3]..

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص714).
2 - أخرجه مسلم (2203) بلفظه.
3 - أخرجه مسلم (2813)، وأحمد (14377)، وعبد بن حميد (1031)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (8347) واللفظ لهم.

يتوقف محمد قطب – رحمه الله - عند ظاهرة "العداوة الشيطانية"، موضحاً أن المعركة بين الإنسان والشيطان هي معركة جبلية قديمة، العجب في الإنسان كيف ينخدع بعدوه التاريخي فلا يعاديه لحساب مستكبرين أو شهوات!

ويقول ابن القيم – رحمه الله -: "كيف يُوالي العبدُ عدوَّ متبوعه وسيده؟ إن من تمام المحبة لله بغض عدوه ومحاربته، فاتخاذ إبليس ولياً مناقضة صريحة لإدعاء العبودية لله."

*﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾: أي ما أحضرت الشياطين ولا أنداد الإشراك حين خلقت الكائنات، ﴿عَضُدًا﴾: العضد هو الساعد، والمراد به هنا: الأنصار والأنصار والأعوان.

النفي القاطع ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾: تجريد الحق جل وعلا عن الشريك والظهير والأنصار.

الاستعارة أو الكناية في ﴿عَضُدًا﴾: هنا ما يسميه البلاغيون: استعار، حيث كنى بالعضد عن النصير والمعاون، ونفى ذلك باسم الفاعل والصفة المشبهة ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ تنفيذاً لسنته بأن أهل الضلال ليسوا أهل اعتماد أو إقامة نظام.

يقول ابن عاشور -رحمه الله – ما معناه: الآية حجة عقلية قاطعة تسفه أحلام المشركين الذين يزعمون للشياطين أو الآلهة حظاً من التدبير أو العلم، وهم لم يحضروا حتى خلق أنفسهم، فكيف يُعبد من لا يعلم أصل الخلقة؟

ويستنبط أهل التدبر والعلماء هنا قاعدة تربوية وسياسية: أن الرب تعالى لم يتخذ المضلين عضداً (أعواناً)، فكذلك لا يجوز للمؤمن ولا للحاكم المسلم أن يتخذ المضلين والفاسقين وزراء أو بطانة أو عضداً في إدارة أمور الحياة.

*﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾

﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾: أمر تعجيز وتقريع وتبكيت لهم يوم القيامة، ﴿مَوْبِقًا﴾: الموبق هو المهلك، أو وادٍ في جهنم يهلكون فيه جميعاً، أو حاجزاً ومفاوز سحيقة البعد تحول دون نصرتهم.

إضافة الشركاء إلى الياء ﴿شُرَكَائِيَ﴾: إضافة تهكمية زعمية (أي الشركاء على حد زعمكم الباطل)، كما قال ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾.

الفاء العاطفة في ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ...﴾: الفاء تدل على السرعة، أي سارعوا لاستغاثتهم من الهول، لكن الجواب جاء بالقطع الفوري: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾!

*﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾
﴿فَظَنُّوا﴾: الظن هنا بمعنى الإيقان والقطع؛ أي أيقنوا إيقاناً لا شك فيه.

﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾: المواقعة هي السقوط الشديد المخيف فيها، ﴿مَصْرِفًا﴾: ملجأً، أو محيصاً، أو معدلاً يعدلون إليه لتفاديها.

إشراقة بلاغية ولسانية: إطلاق الظن على اليقين ﴿فَظَنُّوا﴾: من بديع لغة العرب، يُعبر بالظن عن اليقين عندما يتدرج الهول في نفس الخائف، فيبدأ التوقع ثم يستقر حقيقة جازمة تمزق الفؤاد قبل الوقوع الجسدي!

صيغة اسم الفاعل ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾: إفادة أنهم كأنهم قد سقطوا فيها بالفعل لشدة القرب ورعب المشهد.

*﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طَرَقَه وفاطِمةَ بنتَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيلةً، فقال لهم: ألا تُصَلُّونَ؟ قال عَليٌّ: فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ، فإذا شاءَ أن يَبعَثَنا بَعَثَنا، فانصَرَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ قُلتُ ذلك، ولَم يَرجِعْ إليَّ شيئًا، ثُمَّ سَمِعتُه وهو مُدبِرٌ يَضرِبُ فخِذَه ويقولُ: (وكان الإنسانُ أكثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف:54] [1].

﴿صَرَّفْنَا﴾: كررنا ونوعنا وبينّا بأساليب شتى (وعد، وعيد، أمثال، قصص، دلائل)، ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾: أي أكثر الكائنات والمخلوقات خصومة ومجادلة بالباطل.

التعدية والتكثير في ﴿صَرَّفْنَا﴾: على وزن "فعَّل" لإفادة التقليب والتنوع والكثرة في الأدلة لقطع كل عذر.

تمييز العموم ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ﴾: لم يقل أكثر المخلوقات، بل أدرج الإنسان في عموم الأشياء (حتى الجماد والحيوات)، وجعله يتفوق عليها جميعاً في طبيعة الجدال والمخاصمة!

1 - أخرجه البخاري (7465)، ومسلم (775)، والنسائي (1611)، وأحمد (900)، والبزار (503) واللفظ لهم..

يذكر ابن تيمية – رحمه الله - أن جحد الحق ليس لقصور في الدليل؛ فالقرآن صرّف كل الأمثال، وإنما هو لمرض الجدال والشهوة والاستكبار في نفس الإنسان.

ويعلق سيد قطب – رحمه الله - بأنّ "الجدال آفة الإنسان الكبرى.. يجادل ليتهرب من التكليف، يجادل ليرضي كبرياءه، يجادل ليدفع الحق الذي يصدم هواه."!

*﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾

﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: سنة الله في استئصال الأمم المكذبة بالهلاك الشامل (كقوم نوح وعاد وثمود)، ﴿قُبُلًا﴾: قال ابن عباس: أي عياناً من المتقابلة [1].

إشراقة بلاغية لسانية: الاستثناء الحاصر ﴿وَمَا مَنَعَ... إِلَّا﴾: حصر السبب المانع لإيمانهم في انتظارهم المكابر للعقاب الهالك. جعل الانتظار كأنه الفاعل المباشر للمنع لتصوير شدة عنادهم.

*﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾

﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾: الدحض أصله زلق القدم، والدحض هنا: إزالة الحق وإبطاله واقتلاعه بالشبهات والباطل، ﴿هُزُوًا﴾: سخرية ومهرأة.

إشراقة بلاغية ولسانية: اللام في ﴿لِيُدْحِضُوا﴾: لام العاقبة والتعليل، تُظهر غايتهم الخبيثة التي يركضون وراءها؛ وهي ليس البحث عن الحقيقة بل زحزحة الحق بالدجل والافتراء.

الجمع بين ﴿آيَاتِي﴾ و ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾: إضافة الآيات لله ﴿آيَاتِي﴾ لتبيين عظم الجرم؛ فالمستهزأ به هو كلام الله وآياته العظيمة، ومواجهتها بالسخرية ﴿هُزُوًا﴾ هو أقصى درجات الوقاحة النفسية.

*﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: استفهام معناه النفي القاطع؛ أي لا أحد أشد ظلماً وأبلغ جُرماً. ﴿أَكِنَّةً﴾: أغطية وأغشية كثيفة على القلوب، ﴿وَقْرًا﴾: ثقلاً وصمماً في الآذان.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص715).

إشراقة بلاغية: الترتيب السببي المذهل: التذكير بالآيات ﴿ذُكِّرَ﴾، فالإعراض الاختياري ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، تناسي الذنوب ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، العقوبة القدرية الجزائية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، فالأكنة والوقر عقوبة على إعراضهم العمدي وليست ظلماً ابتدائياً من الله!

التأكيد بالحصر والأبدية ﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾: نفي المستقبل بـ ﴿لَنْ﴾ وتقييده بـ ﴿أَبَدًا﴾ يقطع أمل إيمان من طُبع على قلبه لإصراره العاتي على الباطل.

يحلل ابن القيم – رحمه الله - "مرض الإعراض": "أعظم الظلم هو الظلم بعد مجيء العلم والتذكير.. وحين يعرض العبد، ينسى ذنوبه، وحين ينسى ذنوبه يحسب أنه على خير، فيتراكم الران حتى يصير أكنة ووقراً يحجب النور."

*﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾

﴿الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾: واسع المغفرة، وصاحب الرحمة الذاتية المفيضة على الخلق، ﴿مَوْئِلًا﴾: ملجأ أو منجىً يفرون إليه.

إشراقة بلاغية: الاقتران بين المغفرة والرحمة باسم العلم والصفة: أتى بـ ﴿الْغَفُورُ﴾ بصيغة المبالغة، و﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بصاحب الرتبة الشاملة للرحمة، لتأخير العقوبة وإمهال العصاة لعلهم يستعتبون ويرجعون.

استعمال حرف الامتناع للامتناع ﴿لَوْ﴾: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ... لَعَجَّلَ﴾ دلالة على إمهال الله وحلمه، فالإمهال ليس عن عجز، بل هو أثر من آثار الرحمة والأنظار.

*﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾: الإشارة إلى القرى المجاورة لهم كقرى قوم لوط، وعاد، وثمود، وشعيب التي يمرون عليها في أسفارهم.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾: السبب المباشر لشيوع الهلاك هو الظلم الشامل (الشرك والإفساد)، ﴿مَّوْعِدًا﴾: أي وقتاً وأجلاً محتضراً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

إشراقة بلاغية: اسم الإشارة القريب للبعيد ﴿تِلْكَ﴾: للتنبيه على الحضور العياني لآثارهم ومساكنهم الخاوية لتكون عبرة شاخصة وملموسة.

سنة التوقيت الإلهي ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾: تختم الآية السلسلة بـ "القانون الإلهي الصارم"؛ للأفراد وللأمم مواعيد وأجال، فلا يغتر ظالم بإمهال الله له، فإن للإهلاك ميقاتاً دقيقاً مرسوماً في علم الله لا يخلف.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُملي للظَّالِمِ، فإذا أخَذَه لَم يُفلِتْه، ثُمَّ قَرَأَ {وكَذلك أخذُ رَبِّك إذا أخَذَ القُرى وهي ظالِمةٌ إنَّ أخذَه أليمٌ شَديدٌ}[1].

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا(74) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (76) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا(82))

هذا المقطع من قصّةُ موسى مع العبدِ الصالح (الخضر) في سورة الكهف هو مقطع معرفي وتربوي فريد؛ إذ يُعالِجُ إشكالية "الظاهر والباطن"، و"محدودية العقل البشري أمام مطلق العِلم الإلهي". وقد صيغت بأسلوب قَصَصِيّ بليغ، تتجلى فيه الفروق اللغوية والبلاغية والسياقية بدقة مُعجِزة.

الرحلة في طلب العلم: *﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾

1 - أخرجه البخاري (4686) باختلاف يسير، ومسلم (25839) وهذا لفظه.

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما: أنَّه تَمارى هو والحُرُّ بنُ قَيسِ بنِ حِصنٍ الفَزاريُّ في صاحِبِ موسى أهو خَضِرٌ؟ فمَرَّ بهِما أُبَيُّ بنُ كَعبٍ الأنصاريُّ، فدَعاه ابنُ عَبَّاسٍ، فقال: إنِّي تَمارَيتُ أنا وصاحِبي هذا في صاحِبِ موسى الذي سَألَ السَّبيلَ إلى لُقيِّه، هل سَمِعتَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَذكُرُ شَأنَه؟ قال: نَعَم، إنِّي سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: بينا موسى في مَلَإٍ مِن بَني إسرائيلَ إذ جاءَه رَجُلٌ فقال: هل تَعلَمُ أحَدًا أعلَمَ مِنكَ؟ فقال موسى: لا، فأوحيَ إلى موسى، بَلى عَبدُنا خَضِرٌ، فسَألَ موسى السَّبيلَ إلى لُقيِّه، فجَعَلَ اللهُ له الحوتَ آيةً، وقيلَ له إذا فَقَدتَ الحوتَ فارجِعْ فإنَّكَ سَتَلقاه، فكان موسى يَتبَعُ أثَرَ الحوتِ في البَحرِ، فقال فتى موسى لموسى: {أَرَأَيتَ إِذْ أَوَينا إلى الصَّخرةِ فإنِّي نَسيتُ الحوتَ وما أنسانيهُ إلَّا الشَّيطانُ أن أذكُرَه} [الكهف: 63]، قال موسى: {ذلك ما كُنَّا نَبغِ فارتَدَّا على آثارِهما قَصَصًا} [الكهف: 64]، فوجَدا خَضِرًا، وكان مِن شَأنِهما ما قَصَّ اللهُ[1]..

إشراقة بلاغية: (لَا أَبْرَحُ): حذفُ خبر الفعل الناقص (أي: "لا أبرح أسير")، وهو إيجاز يُفيد التأكيد والسرعة في التصميم، كأنّ السير صار ذاته خُلُقاً لموسى.

(حُقُبًا): جمعُ حُقْب، وهو الدهر والزمان الطويل (يُقال ثمانون سنة). جاءت نكرة للتكثير والمدى المفتوح.

في بخلاف الأحقاب في سورة النبأ: قال الحسن: إن الله لم يجعل لأن النار مدة، بل قال (لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) فوالله ما هو إلاّ إذا مضى حقب دخل آخر إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلاّ الخلود [2]..

التحليل السياقي والتربوي: يبرز هنا خلقُ أدبِ طلبِ العلم؛ فنبيٌّ كليمٌ كـ موسى عليه السلام يقطعُ المسافات الشاسعة ولا يبالي بالزمن ("حقباً") في سبيل طلب عِلم ليس عنده.

يُشير ابن عاشور إلى أن "مجمع البحرين" كان علامةً مادية عيَّنها الله له، لكن إصرار موسى العجيب يعكس همة الأنبياء وتواضعهم أمام العلم.

*﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، إشراقة بلاغية: (نَسِيَا): أُسند النسيان إليهما معاً للصحبة والإيجاز، وإن كان الناسي حقيقة هو الفتى (يوشع بن نون)، لأن مهمة تفقد الطعام كانت موكولة إليه.

(سَرَبًا): "السَّرَب" هو المسلكُ الحافرُ تحت الأرض. صُوّر الماءُ للسمكةِ الميتة وكأنهُ جُحرٌ صلبٌ أو أنبوب مفرغ لم يلتئم عليه فوراً، وهذه معجزة باهرة.

---

1 - أخرجه البخاري (7478)، ومسلم (2380) مطولاً، باختلاف يسير.
2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (1278).

يقول البقاعي – رحمه الله -: الآية تدل على أن النعم قد تُفقد بالذهول والنسيان ليكون ذلك سبباً لإظهار الآيات الكبرى؛ فنسيان الحوت أدى للوصول إلى الغاية المنشودة، وكم من محنة في طياتها منحة.

*﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، إشراقة بلاغية: (فَلَمَّا جَاوَزَا): التعبير بـ "جاورا" يُفيد الاستمرار في السير بعد الموضع المطلوب.

عن رجل من الصحابة رضي الله عنه: أَتَى جبريلُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ بَشِّرْ خديجةَ ببيتٍ في الجنةِ من قصبٍ لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ[1].

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: اعتَمَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واعتَمَرنا معهُ، فلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ طافَ وطُفنا معهُ، وأتى الصَّفا والمَروةَ وأتَيناها معهُ، وكُنَّا نَستُرُه مِن أهلِ مَكَّةَ أن يَرميَه أحَدٌ. فقال له صاحِبٌ لي: أكانَ دَخَلَ الكَعبةَ؟ قال: لا. قال: فحَدِّثْنا ما قال لخَديجةَ؟ قال: بَشِّروا خَديجةَ ببَيتٍ مِنَ الجَنَّةِ مِن قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ[2]..

(نَصَبًا): التعب والتعب الشديد. لم يجد موسى النَّصَب (التعب) إلا بعد تجاوز المكان المحدد؛ لأن الله سلب عنه التعب طالما هو في الطريق المحدد، فلما جاوزه أدركه التعب البشري الطبيعي ليكتشف الخطأ.

إضافة السفر بـ (سَفَرِنَا هَٰذَا تُشير) إلى التخصيص، أي هذا القدر المقطوع بعد المجمع تحديداً.

*﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾

إشراقة بلاغية: (أَرَأَيْتَ): كلمة تُستعمل للتنبيه والتعجيب، أي "أتذكرُ ما حدث؟."

(وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ): ضمير الهاء في (أَنسَانِيهُ) قُرئ بالضمّ (على أصل الضم في لغة أهل الحجاز)، وفيه لفتة لتأثير الوسوسة. (أَنْ أَذْكُرَهُ): بدلُ اشتمال من الضمير في "أنسانيه."

---

1 - أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف))(12/134) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ج7/رقم 1612).

2 - أخرجه البخاري (1791، 1792)، ومسلم(2433)

اللفتة البلاغية النفسية: أنصف الفتى نفسه فلم يُحِل العجز والنسيان لتقصيره، بل أرجعه إلى وسوسة الشيطان، لأنّ الظرف كان ممتلئاً بالآيات التي يُريد الشيطان التعمية عليها لعرقلة هذا اللقاء الإلهي، (عَجَبًا): وصفٌ لحال اتخاذ الحوت مسربه، وهو تعجّب الفتى مما رأى.

*﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، إشراقة بلاغية: (مَا كُنَّا نَبْغ): بحذف الياء من (نبغي) تخفيفاً ولطلاقة الحركة والسرعة، للعدول الفوري والمباشر.

(قَصَصًا): مصدر وقع موقع الحال، أي: مقتصين، وينظران أقدامهما ويتتبعانها بدقة شديدة حتى لا يضلّا عن الصخرة.

يبدو الفرح والارتياح في قوله: "ذلك ما كنا نبغ"، تحوّل التعب والنَّصَب إلى طاقة أمل؛ لأن الضالة قد وُجدت.

*﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. إشراقة بلاغية: (عَبْدًا): التنكير هنا للتعظيم والتفخيم، (عِبَادِنَا): إضافة العبودية لضمير العظمة "نا" لتشريفه.

قدم الرحمة على العلم: (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً) ... (وَعَلَّمْنَاهُ)؛ لأن العلم بلا رحمة ولا أدب يُتحول إلى طغيان ووسيلة للبطش، وهذا العصر خير شاهد.

(مِن لَّدُنَّا عِلْمًا): رجح ابن عاشرة رحمه الله أنّ الخضر عليه السلام كان نبياً يوحى إليه، وأنه قد لحقه الموت، وشنّع على ابن عربي وأمثاله من الصوفية الذين اعتبروا علمه إلهام، وأن تصرفاته في الموجودات كانت أصلا لإثبات العلوم الباطنية[1]..

شرط عقد المرافقة وميثاق الصحبة: *﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

إشراقة بلاغية: (هَلْ أَتَّبِعُكَ): الاستفهام هنا للاستئذان والتلَطُّف الصريح، وهو غاية الأدب من كليم الله لمُعلّمه.

(مِمَّا عُلِّمْتَ): استخدام "مِن" التبعيضية، أي: لا أطلب علمك كله، بل بعضاً مما علق بك، (رُشْدًا): مفعول ثانٍ لتُعلّمني، والتنكير يهدف إلى هداية تُوجّه السلوك والعقل.

1 - انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج7/ص10)

*﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.
إشراقة بلاغية: (لَن تَسْتَطِيعَ): "لن" تأكيد للنفي في المستقبل، توحي بوجود تباين طبيعي في منهاج المعرفة بين الرجلين.

(صَبْرًا): تنكير شُمول، (لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا): الإحاطة الباطنية والمعرفة الدقيقة بالخلفيات، فدل أنّ العم والإحاطة من المعينات على الصبر.

التحليل النفسي والسياقي: يعتذر الخضر لموسى مسبقاً بطريقة منطقية؛ فالعقل البشري الملتزم بالشرع والظاهر (كموسى) لا يمكنه السكوت عن أمور تخالف ظاهر الشرع والعقل إلاّ إذا أحيط بخلفياتها الغيبية.

*﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ﴾، إشراقة بلاغية: إِن شَاءَ اللَّهُ: الاستثناء بربط الأمر بمشيئة الله أدبٌ نبويٌ رفيع، وفيه اعتراف بالعجز البشري عن التعهد المطلق.

وقد ميز شيخ الإسلام ابن تيمية بين (إن شاء الله) تحقيقا، وبينها تعليقا، حين طلب من الأمير أو السلطان تنظيف جيش المسلمين الذين سيواجهون التتار، فاستجاب، فقال: ستنصرون! قيل له: قل: إن شاء الله. قال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، أي ثقة بوعد الله جل وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:7].

﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾: عطف الجملة الإنشائية على الخبرية لتوثيق العهد بالتزام الطاعة.

*﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، إشراقة بلاغية: (شَيْءٍ): عموم وشمول لقطع الطريق على أي اعتراض ظاهر، ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: حصرُ حق المبادرة بالتبيين في المعلم وحده.

*﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾

إشراقة بلاغية: (فَانطَلَقَا): الفاء تُفيد التعقيب والمباشرة دون تراخٍ، إِمْرًا: الشيء العظيم المنكر والشديد.

التناقض الظاهري: قيل: إن أصحاب السفينة حملوهما بغير نَوَل (مجاناً)، فكان المقابل الظاهري هو تخريب سفينتهم! لم يتحمل موسى الدافع الأخلاقي والشرعي فنطق بالإنكار.

*﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، تذكير هادئ من الخضر بالميثاق دون معاتبة حادة.

*﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، إشراقة بلاغية:

(بِمَا نَسِيتُ): عذرٌ بالنفس؛ النسيان يرفع التكليف.

(وَلَا تُرْهِقْنِي): الإرهاق هو التكليف بما يثقل ولا يُطاق. طلب موسى اليسر والمسامحة ليستمر في الرحلة.

*﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾،

إشراقة بلاغية: المفاضلة مع الحادثة الأولى: في السفينة قال: (إِمْرًا) (شيء عجيب بديع شاق).

بينما في قتل الغلام قال: (نُّكْرًا) (شيء منكر أخلاقياً ودينياً، أشد من الإمر)؛ لأن قتل النفس المعصومة أعظم جناية في الظاهر من إتلاف المال. أما قوله (زَكِيَّةً): فتعني: طاهرة لم تبلغ حد التكليف والآثام.

وقيل: بل بلغ العلام سن التكليف، فالغلام قد يطلق على من بلغ سن التكليف وأكثر كما في قصة غلام أصحاب الأخدود.

عن ابن عباس، عن أبي بن كعب رضي الله عنهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الغلامُ الذي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ يَومَ طُبِعَ كافِرًا، و لو عاشَ لَأَرْهَقَ أبَويْهِ طُغيانًا و كَفَرَا [1]..

*﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، دقة لسانية عجيبة: زيادة كلمة لَكَ هنا لم تكن في المرة الأولى، السبب: تكرر الصدور من موسى، فاحتاج التذكير إلى توكيد أشد وعتاب أخصّ موجّه لشخصه مباشرة: "ألم أقل لك أنت تحديداً؟."، والزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى.

*﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ إذا دعا بدأَ بنفسِهِ ، وقالَ : رَحمةُ اللَّهِ علَينا وعلَى موسَى لو صبرَ لرأى

1 - أخرجه مسلم (2661) باختلاف يسير.

من صاحبِهِ العجَبَ، ولَكِنَّهُ قالَ: (إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عذرا) [1].

موسى يفرِضُ على نفسه الشرط الجزائي بكل حسم؛ لعلمه بأنه استوفى فرصته.

(مِن لَّدُنِّي): قُرئت بتخفيف النون وتشديدها، وتدل على وصول العذر للغايّة والمنتهى من قِبل موسى نفسه.

*﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾،

إشراقة بلاغية: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: أشرف على الإنقضاض، أي السقوط: هنا ما يطلق عليه البلاغيون: استعارة، أُسندت فيها الإرادة (وهي من صفات الأحياء) إلى الجدار للتعبير عن ميلانه الشديد وقربه السريع من السقوط، أي: أن العرب تستعمل كلمة يريد لتضمينها معنى: يوشك، أو يكاد، لكنها أبلغ منهما.

(اسْتَطْعَمَا) ... (فَأَبَوْا): مقابلة بين اللطف والانكسار الإنساني (طلب الطعام) وبين اللؤم والبخل الجافي من أهل القرية.

نبي الله موسى - عليه السلام - يعترض للمرة الثالثة، ولكن بلغة الاقتراح الجائز لا الإنكار الجازم: ﴿لو شئت لأخذت أجراً﴾، لنسدّ به جوعنا."

*﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾: إضافة فِرَاقُ إلى بَيْنِي: قطيعة تامة لا رجعة فيها بناءً على شرط موسى السابق.

(مَا لَمْ تَسْتَطِع عليه صبراً): تعريض باللوم عل الاستعجال ومخالفة الشرط للمرة الثالثة، وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده الخضر عليه السلام، واستخدم الصيغة الكاملة للمضارع (تستطع) هنا قبل الشرح والتفصيل، لأن ثقل الغموض لا يزال قائماً في نفس موسى.

*﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبحرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾:

1 - أخرجه أبو داود (3984)، والنسائي في ((الكبرى)) (11248)، وابن أبي شيبة (29226) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده

إشراقة بلاغية:(لِمَسَاكِينَ): إثبات اسم المسكنة لهم رغم ملكيتهم للسفينة، لأنها لا تكفي حاجتهم، وقيل: بل مساكين هنا بمعنى ضعفاء المال، الذين يرتزقون من جهدهم، ويُرق لحالهم، لأنهم يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم.

(فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا): نسَبَ العيب إلى نفسه أدباً (أردتُ)؛ لأن الخرق عيب ظاهر في الصورة، وإن كان باطنه رحمة،

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، قال ابن عاشور – رحمه الله -: ويستعار (وراء) لحال تعقب شيءٍ شيئا، وحال ملازمة طلب شيءٍ شيئاَ بحق، وحال الشيءء الذي سيأتي قريباً، كل ذلك تشبيه بالكائن خلف شيء لا يلبث أن يتصل به، كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية:10]

قال لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . لزوم العصا تُحنى عليها الأصابعُ

وقوله سبحانه : (كُلَّ سَفِينَةٍ): أي كل سفينة صالحة سليمة (تقدير محذوف تدل عليه القرينة).

وأنكر ابن عاشور - رحمه الله - أن تكون (وراء) من معاني الأضداد، قال: أنكره الفراء، وقال: لا يجوز أن تقول للذي بين يديك هو وراءك وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي، تقول: وراءك برد شديد، وبين يديك برد شديد، قال الزجاج: وليس ذلك من الاضداد كما زعم بعض أهل اللغة [1].

*﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾:

(فَخَشِينَا) ... (فَأَرَدْنَا): استخدم ضمير الجمع (المعظم نفسه أو المشارك لغيره)؛ لأن الفعل هنا فيه إهلاك ونفع إلهي مُقدر، وهو أمرٌ يتجاوز التصرف الفردي إلى قدر إلهي نافذ شاركت فيه ملائكة أو قوى إلهية.

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: المعنى: وأما الغلام، فإنه كان كافراً، وكان أبواه مؤمنين، فعلمنا أنه يرهقهما: يقول: يغشيهما طغيانا، وهو الاستكبار على الله، وكفرا به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وقد ذُكر ذلك في بعض الحروف. وأما الغلام فكان كافرا.

1 - انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير (ج7/ص6-7)

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: معنى قوله ﴿خَشِينا﴾ في هذا الموضع: كرهنا، لأن الله لا يخشى.

قال: ابن جريج: وأخبرني عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، أنه سمع سعيد بن جبير يقول: أبدلا مكان الغلام جارية، وقال آخرون: أبدلهما ربهما بغلام مسلم.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا أبو سفيان، عن معمر، عن قتادة، أنه ذكر الغلام الذي قتله الخضر، فقال: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ : كنتُ رِدفَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فالتفتَ إليَّ فقالَ : يا غلامُ ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظْكَ ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أمامَكَ ، تَعرَّف إلى اللَّهِ في الرَّخاءِ ، يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ قد جفَّ القلَمُ بما هوَ كائنٌ ، فلَو أنَّ الخلقَ كُلَّهُم جميعًا أَرادوا أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يقضِهِ اللَّهُ لَكَ ، لَم يَقدِروا عليهِ ، أو أرادوا أن يضرُّوكَ بشيءٍ لم يقضِهِ اللَّهُ علَيكَ ، لَم يقدِروا علَيهِ ... واعلَم أنَّ ما أصابَكَ لم يكُن ليُخطِئَك وما أخطأَكَ لم يكُن ليُصيبَكَ ، واعلَم أنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ ، وأنَّ الفرجَ معَ الكربِ ، وأنَّ معَ العُسرِ يُسرًا[1].

وقوله: ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾، يقول: خيرا من الغلام الذي قتله صلاحا ودينا، وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأقرب رحمة بوالديه وأبرّ بهما من المقتول، عن قتادة ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ : أبرّ بوالديه.

وفي رواية أخرى عن قتادة ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أي أقرب خيرا، وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأقرب أن يرحمه أبواه منهما للمقتول[2].

تقديم الزكاة على الرحمة: الطهارة من الطغيان هي أصل الرحمة والبر بالوالدين.

*﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾:

1 - أخرجه الترمذي (2516) بنحوه، وأحمد (2803) باختلاف يسير، والسخاوي في المقاصد الحسة (188)، وقال عن إسناده: حسن وله شاهد.

2 - انظر الطبري: جامع البيان (ج18/ص85)، طبعة دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

إشراقة بلاغية في الدقائق اللفظية: (فَأَرَادَ رَبُّكَ): أسند الإرادة والتصرف والفضل إلى الله تعالى وحده باسم "الرّب" المضاف إلى موسى (ربك)؛ لأن هذا الفعل خيرٌ محض ظاهر، وتربية ورحمة باليتيمين وبرعايتهما حتى الكبر.

وأمر الله سبحانه كله خير: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استفتَح الصَّلاةَ كبَّر ثمَّ يقولُ : (وجَّهْتُ وجهيَ للَّذي فطَر السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا مِن المُشرِكينَ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي للهِ ربِّ العالَمينَ لا شريكَ له وبذلكَ أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسلِمينَ اللَّهمَّ أنتَ المَلِكُ لا إلهَ إلَّا أنتَ أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ ظلَمْتُ نفسي واعترَفْتُ بذَنْبي فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ لبَّيْكَ وسعدَيْكَ والخيرُ كلُّه في يدَيْكَ والشَّرُّ ليس إليكَ أنا بكَ وإليكَ تبارَكْتَ وتعالَيْتَ أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ[1].

(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي): إعلان براءة الخضر من الادعاء؛ فهو ليس صاحب تشريع مستقل، بل هو مأمور ومسخّر ومؤيد بالوحي.

(مَا لَمْ تَسْطِع): هنا خفّف الفعل بحذف التاء (تَسْطِع بدلاً من تَسْتَطِع)!، والسر البلاغي الساحر بينه ابن القيم وابن عاشور – عليهما رحمة الله -: عند إشكال الأمر وعظمه وثقله في البداية استخدم اللفظ الأطول والأثقل ثقلاً وحروفاً (تَسْتَطِع)؛ فلما انكشفت الأسرار وزال العجب والغموض وتسهل الفهم، خفّف اللفظ بحذف الحرف (تَسْطِع) لتناسب خفة المعنى بعد إجلائه وتوضيحه!

فإن قيل: ما وجه تنوع ضمير الإرادة: فالجدار (يريد أن ينقض)، والسفينة (فأردت أن أعيبها)، والغلام (فأردنا أن يبدلهما ربهما)، وإصلاح الجدار (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما)؟

فالجواب/

قال في إسلام ويب: فها هنا أمران، أولهما: نسبة الخضر -عليه السلام- خرق السفينة إلى نفسه، بقوله: فأردت، ونسبته قتل الغلام إلى نفسه كذلك بقوله: فخشينا، ثم قوله: فأردنا، وأما بناء الجدار، فقد نسب حكمته إلى الله تعالى بقوله: فأراد ربك، وفي هذا سر لطيف،

وهو أن الله تعالى يتأدب معه، فلا ينسب إليه ما ظاهره الشر، وإن كان الكل بإرادته، فلما كان خرق السفينة، وقتل الغلام مما ظاهره الشر، نسب الخضر إرادة ذلك إلى نفسه، بخلاف بناء الجدار، قال القاسمي: وفيها حسن الأدب مع الله، وأن لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه، وإن كان الكل بتقديره، وخلقه؛ لقول الخضر عن السفينة:

1 - أخرجه مسلم (771) بلفظ مقارب في أثناء حديث، وأبو داود (760)، والترمذي (3421

فأردت أن أعيبها، وعن الجدار: فأراد ربك، ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم: والخير بيديك، والشر ليس إليك. انتهى.

وأما الثاني: فهو إخبار الخضر عليه السلام عن نفسه بتاء المتكلم في الأول، وهو خرق السفينة، ثم إخباره عنها بنون العظمة في الثاني، وهو قتل الغلام، وقد جود الشوكاني الكلام في هذا الموضع، كما سيمر بك كلامه، قال صديق حسن خان -رحمه الله- في فتح البيان: (فأراد ربك) أي: مالكك، ومدبر أمرك، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفا له، وإنما ذكر أولا: فأردت؛ لأنه إفساد في الظاهر، وهو فعله، وثانيا: فأردنا؛ لأنه إفساد من حيث الفعل، إنعام من حيث التبديل، وثالثا: فأراد ربك؛ لأنه إنعام محض، وغير مقدور للبشر. اهـ

قال الشوكاني رحمه الله: ومع هذا؛ ففي تلوين العبارة نوع من الحسن آخر، وهو الافتنان في الكلام، فإنه أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظا له، كما قيل في نكتة الالتفات،

ويمكن أن يقال: إن خرق السفينة لما كان باعتبار تحصيل مسماه أمرا يسيرا، فإنه يحصل بنزع لوح من ألواحها، قال: (فأردت أن أعيبها)، ولما كان القتل مما تتعاظمه النفوس، وتدخل فاعله الروعة العظيمة، نزل منزلة ما لا يقدر عليه إلا جماعة.

ويمكن أيضا وجه ثالث، وهو أن يقال: لما كان خرق السفينة مما يمكن تداركه بأن يرد اللوح الذي نزعه، كان ذلك وجها للإفراد؛ لأنه يسير بالنسبة إلى ما لا يمكن تداركه، وهو القتل. وأما قوله: (فأراد ربك)، فوجه نسبة الإرادة إلى الرب سبحانه، أن هذه الإرادة وقعت على قوله: أن يبلغا أشدهما، ومعلوم أن ذلك لا يكون من فعل البشر، ولا بإرادته؛ لأن بقاءهما في الحياة حتى يبلغا الأشد، لا يدخل تحت طاقة البشر ولا يصح نسبته إلى غير الرب عز وجل؛ ولهذا يقول الخضر: (رحمة من ربك وما فعلته عن أمري)، هذا ما خطر بالبال عند الوقوف على هذه الآية، ولم أقف على كلام لأحد من أهل التفسير فيما يتعلق بذلك. انتهى، وهو واف بالمقصود كما ترى.

قلت: ويقال في الجدار (يريد أن ينقض) قريب مما قيل في السفية: فهو نوع فساد بسبب عوامل التعرية، وهو لا يخرج عن قدر الله – سبحانه - وتدبيره كذلك، فنسب للجدار، وهو تعبير معروف في لغة العرب، بمعنى يوشك أو يكاد، أو أشررف على الإنقضاض، وتنزيها لله من كل ما فيه نوع الفساد ونقص: كما في الحديث (الشر ليس إليك). والله أعلم.

فإن قيل: ما الفوائد التي جناها موسى عليه السلام وقد شد رحله لطلب العلم لأجلها، فالجواب نقتطفه من تفسير ابن سعدي رحمه الله:

قال ابن سعدي رحمه الله: «وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله.

فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك». قلت: والتأكيد على الصبر في طلب العلم واضح جداً في هذه القصة.

«ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه " يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير " ويراعي أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما، أعظم شرا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد، ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها، داخل في هذا»،

وقد قيل: ليس العلم معرفة الخير من الخير فحسب، بل معرفة خير الخيرين وشر الشرين.

«ومنها: القاعدة الكبيرة أيضا وهي أن " عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير " كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غصب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن»

«ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أمورا يكرهها جدا، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجا من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة» [1].

(وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا

1 - انظر ابن سعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص460).

يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا(97) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110))

هذا الدرس الختامي العظيم من سورة الكهف ذروة التوجيه الإلهي وبلاغة القول؛ إذ تَنْتَقِل بالنفس البشريّة من مَشاهِد الحركة والتمكين الدنيوي (قصة ذي القرنين) إلى التجريد الإيماني وموازين الأخرويّة الخالدة، مَسْبُوكَةً بأعلى درجات البيان القرآني.

أولاً: رحلة التمكين والعدل (قصة ذي القرنين): *﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

السياق والأسلوب: السين في ﴿سَأَتْلُو﴾ سين الوعد القريب للتسويق والتأييد. ﴿ذِكْرًا﴾ أي: خبرا، ونكرها للإفادة بأن المذكور هنا ليس التاريخ الكامل، بل ما فيه الموعظة والعبرة.

قيل: كان نبياً، والأكثرون على أنه كان ملكاً عادلاً صالحاً، واختلفوا في سبب تسميته بذي القرنين، قال الزهري: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل: لأنه ملك الروم وفارس، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة. والله أعلم [1].

السؤال كان امتحاناً من أهل الكتاب ومشركي مكة، فجاء الرد ليؤكد أن القرآن ليس سِجِلاً تاريخياً مجرداً، بل هو كتاب هداية ينتقي من الأحداث ما يصنع الوعي.

يذكر البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ السين في "سأتلو" تفيد الوعد القريب المؤكد لقطع تشوف السامعين واستعجالهم لمعرفة النبأ.

السياق التاريخي: جاءت الآية رداً على تحدي قريش للنبي ﷺ بتوجيه من اليهود ليسألوه عن "رجل طواف جاب مشارق الأرض ومغاربها".

خلص في موقع الإسلام سؤال وجواب إلى التالي: وعلى كل، فإن سورة الكهف مكية ، على خلاف في بعض آياتها هل هي مكية أيضا أم مدنية ، والآيات التي فيها ذكر أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، آيات مكية باتفاق ، فيكون الغالب أن من سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك هم كفار قريش ، ولا يبعد أن يكونوا قد تواصلوا مع أحد من أهل الكتاب فدلهم على ذلك ، لأن قريشا لا علم لها بذلك أصلا.

أما سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح فهذا ثابت كما قدمنا ، وكان بعد مقدمه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

وأما الحديث المشهور المذكور في كتب التفسير والسير أن كفار قريش تواصلوا مع اليهود فسألوهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرشدوهم إلى أن يسألوه عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين ، فحديث ضعيف لا يثبت ، والله أعلم [2].

الإيجاز والانتخاب: يوضح ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) أن استخدام التبعيض في قوله ﴿مِنْهُ﴾ يعني: سأقُص عليكم بعضاً من أحواله الدالة على الحكمة والتمكين، ونترك ما لا فائدة فيه لتظل العبرة هي المقصود الأسمى، وليس مجرد السرد التاريخي.

الالتفات الجمالي: الانتقال من صيغة الغيب في السؤال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ إلى صيغة المتكلم المأمور بالتبليغ ﴿قُلْ سَأَتْلُو﴾ يمنح النص هيبة، ويؤكد أن مصدر العلم هو الوحي الإلهي المطلق وليس اجتهاداً شخصياً.

اختيار اللفظ "أتلو": التلاوة تفوق مجرد الإخبار أو القصص؛ فهي قراءة متتابعة منظومة، يُراد منها التعبد والتدبر وتتبع الأثر الفكري والتشريعي.

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص721).
2 - انظر موقع الإسلام سؤال وجواب على الشبك، سؤال (304909).

تنوين "ذكراً": جاء للتعظيم، أي: ذكراً خطيراً، شريفاً، باقياً على وجه الدهر تتناقله الأجيال.

. إشراقة بلاغية: ﴿ذِكْرًا﴾ نكرة لتفخيم شأن هذا النبأ، فهو ذكر يرفع قدر من يستمع إليه ويعقله.

الكناية في "منه": إيجاز بليغ يغني عن تفاصيل طويلة لا نفع فيها (مثل اسمه الحقيقي، ونسبه، وتفاصيل رحلاته الجغرافية الدقيقة)، مما يركز انتباه السامع على جوهر القصة.

"الذكر" هنا هو الوحي والقرآن المتضمن لخبره، أو هو الصيت والثناء العظيم الذي تركه ذو القرنين في الأرض.

يؤصل ابن تيمية – رحمه الله - من خلال هذا النظم لقاعدة "الاقتصار على ما ينفع" في قصص القرآن. فالقرآن لم يأتِ ليكون كتاباً في التاريخ المحض، بل كتاب هداية؛ لذا فإن ما يتلوه النبي ﷺ هو الخلاصة الزكية التي تصحح المفاهيم وتبني العقيدة، وتحترم العقل، وتشكل الوعي.

يرى سيد قطب في ظلال القرآن أن هذه الافتتاحية ﴿سأتلو عليكم منه ذكراً﴾ تهيئ النفس البشرية لاستقبال تجربة إنسانية فريدة في الحكم والتمكين. إنها قصة قائد يملك القوة المادية، لكنه يربطها بالتقوى والعدل الفائق.

ويضيف محمد قطب – رحمه الله - في (فقه التربية الإسلامية) أنّ الآية تعلّم الأمة منهجية حصر الاهتمام في "العبرة المستفادة" لحماية العقل المسلم من التشتت في تفاصيل الإسرائيليات والخرافات الجغرافية التي لا تبني واقعاً ولا تزكي نفساً

*﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، إشراقة بلاغية: الجملة الاسمية المُؤكَّدة بـ ﴿إِنَّا﴾ تُسْنِد التمكين والفضل لله سبحانه وتعالى.

"السبب" في اللغة هو ما يُتَوَصَّلُ به إلى المقصد (كالحبال والمناهج والطرق). المعنى: أعطيناه العلم والقدرة والوسائل الهادية لفتح أقطار الأرض وتدبير الحكم.

*﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: إشراقة بلاغية: الفاء لـ "التعقيب"، والإتباع يدل على الأخذ بالوسائل بجدٍّ واستقامة.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ أي: سلك وسار، ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقاً، وقال ابن عباس: منزلاً، ربما من منازل النجوم التي يهتدى بها في البحر، لقله تعالى ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:16].

الأخذ بالأسباب – ساء فهم من هذه الآية أ لا - أصل من أصول العقيدة، سواء للتمكين في الأرض أو لطلب معاش المرء وغيره، لا يُؤْتِي أُكُلَهُ إلاّ إذا اقترن بالسعي

البشري؛ وذلك لا ينافي التوكل على الله، هو من تمام العبودية، وتركه قدح في الشرع والعقل، فلم يكتفِ ذو القرنين بإمكاناته، بل أخذ بالأسباب وسار بها.

من ذلك ما جاء في هذه الآيات، وكذا حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: لو أنَّكم كنتُم توَكلونَ علَى اللهِ حقَّ توَكلِه لرزقتُم كما يرزقُ الطَّيرُ تغدو خماصًا وتروحُ بطانًا [1].

لو حقَّقتُم معنى التَّوكُّلِ على اللهِ، واعتمَدتُم عليه بصِدقٍ، وأخَذتُم بما تيَسَّر لكم مِن أسبابٍ، وعَلِمتم أنَّ اللهَ بيَدِه العطاءُ والمنعُ، وأنَّ تَكَسُّبَكم وسعيَكم مِن أسبابِ اللهِ، وليسَت قوَّتُكم هي الرَّازِقةَ لكم، "لَرُزِقتُم"، أي: لرزَقَكم اللهُ ويسَّر لكم الأسبابَ،

*﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

البيان واللسانيات: ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي المكان والمكانة التي لا أرض بعدها من جهة الغرب بحسب رؤية العين، رؤية بصرية لمن يقف على شاطئ المحيط. ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات طين أسود حار.

الأسلوب: ﴿إِمَّا... وَإِمَّا﴾ أسلوب تخيير وتخيير التكليف. يستدل بهذا من زعم أنه كان نبيّاً، والصحيح أنه لم يكن نبيّاً، والمراد الالهام.

﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا الإسلام، ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يعني: تعفو وتصفح، وقيل: تأسرهم فتعلمهم الهدى، خيره الله بين الأمرين

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: كفر، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي نقتله، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ في الآخرة، ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكراً، يعني: في النا،

*﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله الحسنى، وهي الجنة، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ نلين له القول، ونعامله باليسر من أمرنا.

استجابةٌ تفيض بفقه الدولة والعدل. تقْسيم السلوك إلى ظالم (مستحق للعقوبة) ومؤمن صالح (مستحق للإكرام).

يرى سيد قطب – رحمه الله – أنّ هذا هو دستور الحاكم الصالح؛ لا يُسوّي بين المحسن والمسيء، ولا يكتفي بالعقاب، بل يُردِف الجزاء بالقول الميسور والتشجيع والمعاملة الحسنة.

---

1 - أخرجه الترمذي (2344)، وابن ماجه (4164)، وأحمد (205) واللفظ له، وصحح الألباني إسناده.

*﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ سلك طرقاً ومنازل، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أي: موضع طلوعها.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، قال قتادة والحسن: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، فكانوا يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم.

*﴿كَذَٰلِك﴾، أي: كذلك كما حكم في القوم الذين عند مغرب الشمس حكم في الذين هم عند مطلع الشمس.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: بما عنده ومعه من الجند والعدة والآلات، (خبرا) أي علما.

إشراقة بلاغية: التكرار في ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يؤكد حركة الدعوة والإنشاء والتغيير المستمرة.

ولعل في ذلك تعريض وإغراء لأمة الإسلام أن تقتدي بذي القرنين، وتنشر الهدى في الأرض. فقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:28]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107].

قال بن باز رحمة: الآية على ظاهرها، الله سبحانه أرسل نبيه محمد ﷺ رحمة للعالمين، هو رسول الله إلى الجن والإنس، إلى الجميع، كما قال تعالى :قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا[الأعراف:158]، وقال سبحانه :وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[سبأ:28]، فهو رسول الله إلى الجميع، وهو رحمة الله إلى العالمين بأسباب رسالته وطاعة أوامره، ينزل الغيث وينتفع العالم كله؛ الدواب والشجر والجن والإنس والحيوانات، وتقوم الحجة على الكافر ويبلغ الرسالة فهو رحمة للعالمين جميعًا، فمن دخل في رسالته صارت الرحمة كاملة في حقه ودخل الجنة ونجا من النار، ومن لم يدخل قامت عليه الحجة وانتفت المعذرة وصار بذلك قد رحم من جهة بلاغه ومن جهة إنذاره حتى لا يقول: ما جاءني بشير ولا نذير، هذا نوع من الرحمة[1].

إشراقة بلاغية: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ صورة فنية تُبْرِز بدائية القوم وعريهم من العمران والثياب؛ أي تشرق عليهم الشمس مباشرة بلا جبال ولا أبنية.

1 - انظر: ابن باز: نور على الدرب تفسير قوله تعالى (وما أسلناك إلا رحمة للعالمين).

وكذا قوله سبحانه: ﴿أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ الإحاطة الإلهية بالنيات والمقاصد والأسباب أثناء مسيرته التمكينية.

ثانياً: بناء السدّ وعقيدة الجزاء: *﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ المبالغة في نفْي الفهم تُشِير إلى عُجمة ألسنتهم وانعزالهم الحضاري.

إشراقة بلاغية: العرض المالي منهم ﴿خَرْجًا﴾ (أي جعلاً من المال) يبيّن عجزهم المادي والفني مقابل تميز ذي القرنين الإداري والهندسي، لكن لدينهم ما يكافئونه، كما حاولت بلقيس أن تكف نبي الله سليمان عن عزوها بهداياها، وكان جوابه قريبا من جواب هذا العبد الصالح.

*﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾: التجرد التام لله ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾؛ لم يطمع بمالهم، واستنفر طاقتهم البشرية ﴿بِقُوَّةٍ﴾ ليعلمهم الاستغناء والعمل الجماعي.

يقول المثل العالمي: لا تعطني سمكة، ولكن علمني كيف أصطاد. وهو في معنى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلًا من الأنصارِ أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يسألُه فقال أمَا في بيتِكَ شيءٌ؟ قال بلى حِلْسٌ نلبسُ بعضَه ونَبسطُ بعضَه وقعبٌ نشربُ فيه من الماءِ قال ائتني بهما قال فأتاه بهما فأخذهما رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بيده وقال من يشتري هذينِ؟ قال رجلٌ أنا آخذهما بدرهمٍ قال من يزيد على درهمٍ؟ مرتينِ أو ثلاثًا قال: رجلٌ أنا آخذُهما بدرهمينِ فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمينِ وأعطاهما الأنصاريَّ وقال اشترِ بأحدِهما طعامًا فانبِذْهُ إلى أهلِكَ واشترِ بالآخر قدُّومًا فأتني به فأتاه به فشدَّ فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عودًا بيدِه ثم قال له اذهبْ فاحتطبْ وبعْ ولا أَرَينَّكَ خمسةَ عشرَ يومًا فذهب الرجلُ يحتطبُ ويبيعُ فجاء وقد أصاب عشرةَ دراهمَ فاشتَرَى ببعضِها ثوبًا وببعضِها طعامًا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خيرٌ لكَ من أن تجيءَ المسألةُ نكتةً في وجهِكَ يومَ القيامةِ إنَّ المسألةَ لا تصلَحُ إلا لثلاثةٍ لذي فقرٍ مُدْقِعٍ أو لذي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أو لذي دَمٍ مُوجِعٍ[1].

إشراقة بلاغية: انتقال المعجم السردي إلى تفاصيل مادية دقيقة: (زُبَرَ الْحَدِيدِ، الصَّدَفَيْنِ، انْفُخُوا، قِطْرًا).

---

1 - أخرجه أبو داود (1641) وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح، وأخرجه ابن ماجه (2198)، باختلاف يسير، والبيهقي (13342)، بلفظ مقارب، والنسائي (4508)، مختصرا.

قال أولاً: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ بالخفة لأن التسلّق أسهل، بينما قال ثانياً: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ بالتضعيف والزيادة (استطاعوا) لأن الثقب أشد صعوبة وأحوج إلى جهد أكبر!

*﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وكان وعد ربي حقاً﴾:

الفقه الإيماني الكامل؛ لم يغره إنجازه الهندسي العظيم، بل رد النعمة للمُنْعِم ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾، وذكر زوال الدنيا وفناء أسبابها في المحشر ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾.

مشهد القيامة والميزان الحق: *﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.... الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي...﴾

الصورة الفنية: حشدٌ هائل وموجٌ من الخلائق ﴿يَمُوجُ﴾، تعبير عن الاضطراب والتردد، ثم إن مآلهم إلى الجمع في أرض المحشر بعد النفخة الثانية في الصور ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: يجمعُ اللهُ الأولينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ أربعينَ سنةً شاخصةً أبصارهُم إلي السماءِ ينتظرونَ فصْلَ القضاءِ، وينزلُ اللهُ في ظُلَلٍ الغمامِ من العرشِ إلي الكرسِيّ، ثم ينادي منادٍ: أيُّها النَّاسُ، ألم ترضوا من ربكُم الَّذي خلَقكُم ورزقكُم وأمركُم أن تعبدوهُ ولا تشركوا به شيئًا أن يَولِّيَ كلَّ ناسٍ ما كانَ يتولَّى ويَعبدُ في الدنيا؟ أليسَ ذلك عدلًا من ربكُم؟ قالوا: بلَى، فينطلقونَ فيتمثَّلُ لهم أشباهُ ما كانوا يعبدونَ، فمنهُم مَن ينطلقُ إلى الشَّمسِ، ومنهم من ينطلقُ إلى القمرِ، وإلى الأوثانِ، ويتمثَّلُ لمن كان يعبدُ عيسى شيطانُ عيسى، ولمن كان يعبدُ عُزَيرًا شيطانُ عزيرٍ. ويبقى محمدٌ صلى الله عليه وسلم وأمَّتُه، فيتمثل الرَّبُّ عز وجلَ لهم فيأتيهِم فيقولُ: ما لكُم لا تنطلقونَ كما انطلقَ النَّاسُ؟ فيقولونَ: بيننا وبينهُ علامةٌ، فإذا رأيناهُ عرَفناهُ. فيقول: ما هي؟ فيقولون: يُكشفُ عن ساقٍ، فعندَ ذلكَ يكشفُ عن ساقِه فيخرُّونَ، ويبقى قومٌ ظهورهُم كصَياصِي البقرِ، يُريدونَ السُّجودَ فلا يستطيعونَ، ثمَّ يقول: ارفعوا رؤوسكم، فيعطيهِم نورَهُم على قدرِ أعمالهِم، والرَّبُّ عز وجلَ أمامهُم... وذكرَ الحديثَ. روى بعضَه سُفيانُ الثوريُّ وغيره عن مَسْلمَةَ بن كُهَيلٍ عن أبي الزَّعْرَاءِ عن ابن مسعودٍ، وفيه: فيتمثَّلُ اللهُ للخَلقِ ثمَّ يأتيهم في صورتِه [1].

---

1 - أخرجه الطبراني (417/9) (9763)، والدارقطني في ((رؤية الله)) (163)، والحاكم (8751) باختلاف يسير، وقال الذهبي في (العلو) (ص92): هذا الحرف محفوظ في حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

*﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾، إشراقة بلاغية: ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ الحرف (في) يدل على الانغماس التام والاستغراق في الغفلة؛ حتى كأن الغطاء محيط بأبصارهم يمنعهم من رؤية دلائل التوحيد.

*﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا...﴾، إشراقة بلاغية: الاستفهام التشويقي ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ لافت للنظر، تتبعه أشد صفة: ﴿الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ صيغة تفضيل.

*﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ المأساة الكبرى ليست مجرد الفشل، بل الجهل المركّب والغرور الذي يزين الباطل والعمل الهباء لصاحبه.

وكان شيخنا كثيرا ما يتمثل بقول الشاعر:

قال حمار الحكيم تـوم * لو أنصف الدهر كنت أركب

فإنني جاهل بسيــط * وصاحبي جاهل مـــــركب

تتناسق هذه الآية مع أول السورة في قصة "أصحاب الكهف" و"صاحب الجنتين"؛ حيث العبرة ليست بالأعمال وحدها، بل بالنية والتوجيه والتقوى.

*﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ نفيٌ لتفاهة أقدارهم، فلا قيمة لأعمال خلَتْ من إخلاص الإيمان، *﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّه لَيَأتي الرَّجُلُ العَظيمُ السَّمينُ يَومَ القيامةِ، لا يَزِنُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعوضةٍ، اقرَؤوا {فلا نُقيمُ لهم يَومَ القيامةِ وزنًا [1].

وعن ثوبان مولى رسول الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لأعلَمنَّ أقوامًا من أمَّتي يأتونَ يومَ القيامةِ بحسَناتٍ أمثالِ جبالِ تِهامةَ بيضاءَ فيجعلُها اللَّهُ هباءً مَنثورًا، قالَ ثوبانُ: يا رسولَ اللَّهِ صِفهم لَنا، جلِّهم لَنا أن لا نَكونَ منهم، ونَحنُ لا نعلمُ، قالَ: أما إنَّهم إخوانُكُم، ومِن جِلدتِكُم، ويأخُذونَ منَ اللَّيلِ كما تأخذونَ، ولَكِنَّهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارمِ اللَّهِ انتَهَكوها [2].

---

1 - أخرجه البخاري (4729) باختلاف يسير، ومسلم (2785) وهذا لفظه

2 - أخرجه ابن ماجه (4245)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4632)، والروياني في ((المسند)) (651) واللفظ لهم جميعا، وحسن إسناده البويصيري في مصباح الزجاجة (ج4/ص245)، وغيره.

أمّا جزاء الأبرار: *﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا...﴾،

مقابلة بديعية بين (جهنم نزلاً) للكافرين، و(جنات الفردوس نزلاً) للمؤمنين، ثم الدفء النفسي: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ النفي المستمر يُبيّن أن نعيم الجنة بلغ الكثرة والكمال والجمال بحيث لا تشتاق النفوس إلى التغيير أو التحول، بخلاف طبيعة الإنسان في الدنيا التي تملّ التكرار.

*﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبحر مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي...﴾، البيان والتمثيل: أسلوب الشرط والمبالغة العظمى بالصورة الحسية؛ جعل البحار على سعتها حبراً للعدّ والكتابة، فتبلى وتنفد المحيطات والكلمات لا تنتهي.

تنبيه على عدم محدودية علم الله، وحكمته، وأمره، وكلامه، مقابل تضاؤل وإحاطة العلم البشري المحدود.

ثم قال في مسك ختام السورة: *﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

إشراقة: قصر وحصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لتجريد التوحيد، وبيان مقامي النبوة والبشرية في أنصع صورة.

جمعت هذه الخاتمة ركني قبول العمل الصالح اللذين يدور عليهما الدين كله:

المتابعة والموافقة: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ (ما وافق الشرع والسنة)، ثمّ الإخلاص التام: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (ما ابتُغي به وجه الله وحده).

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن سمَّع سمَّع اللهُ به ومَن راءَى راءَى اللهُ به[1].

عن محمود بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصْغَرُ، قالوا: وما الشِّرْكُ الأصْغَرُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الرِّياءُ؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم يومَ القِيامةِ إذا جُزِيَ الناسُ بأعمالِهم: اذْهَبوا إلى الذين كنتُم تُراؤون في الدُّنيا، فانظُروا هل تَجِدون عِندَهُم جزاءً؟![2].

---

1 - أخرجه مسلم (2986).

2 - أخرجه أحمد (23630) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (6831)، والبغوي في ((شرح السنة))(4135) ، وحسن شعيب الأرناؤوط إسناده.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه ربه قال: ال اللهُ تعالَى : أنا أغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ ، مَنْ عمِلَ عملًا أشركَ فيه معِيَ تركتُهُ وشِركَهُ [1].

هكذا بدأت سورة الكهف بالحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده لتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين، واختُتمت بالتأكيد على التوحيد البحت والعمل الصالح ومقام النبوة. وبين البدء والختام، عَرُضَتِ الفتنُ الأربع (الدين، المال، العلم، والتمكين)، فجاءت قصص السورة وختامها برسم "العصمة الإيمانية" للأنفس من كل طغيان أو زيف دنيوي.

1 - أخرجه مسلم (2985) باختلاف يسير، وهذا اللفظ صححه الألباني في صحيح الجامع (4313).